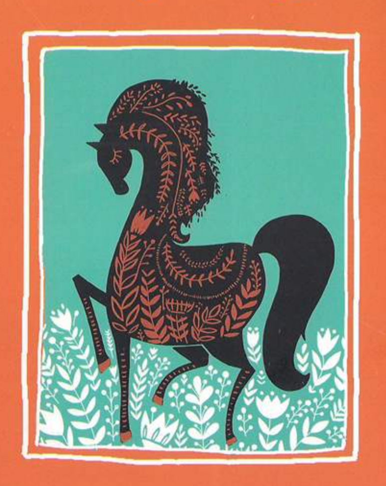
يوسف زيدان



شجون عربية

الكتاب: شجون عربية

المؤلف: يوسف زيدان

رقم الإيداع: ٢٢٢٦٤ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٤٣٦-٦٩-٥

الطبعة الأولى : ٢٠١٦

الغلاف: مي يسري



٢٠ عمارات منتصر – الهرم – الجيزة

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

Noon_publishing@yahoo.com

شجون عربية

يوسف زيدان



مدخل

عنوان هذا الكتاب، وتوأمه الآخر " شجون مصرية " لا يقصد به المعنى المشهور الذى يظنه معظم الناس حين يتوهَّمون أن " الشجون " تعنى الحزن والأسى، وإنما نقصد بالكلمة معناها الفصيح : التداخل والاشتباك بين الفروع والتفاصيل. وقد استقصينا الكلام عن معانى كلمات (شجون، أشجان، شجن) وتداخلها مع معنى (شجو، شجى) فى مقدمة الكتاب الآخر : شجون مصرية .. وأوردنا هناك القصة القديمة التي اشتهرت منها، وبسببها، عبارة : الحديثُ ذو شجون .

وفى " شجون مصرية " كانت لنا سبع وقفاتٍ عبر الفصول السبعة للكتاب، كلها تخص الواقع المصرى وترتبط به ارتباطًا وثيقًا، لكنها تلقى أيضًا بظلالها على الواقع العربى العام، بحكم ارتباط مفهومىْ "المصرية"و"العروبة ".. وفى المقابل، يضمُّ هذا الكتاب الذى بين أيدينا، ثلاثة موضوعات (فصول) أساسية، تخص الواقع العربى العام وترتبط به بشكل كلىٍّ ومباشر، مع أنها فى الوقت ذاته تلقى بظلالها القوية الثقال، على الواقع "المصرى" بحكم هذا الارتباط بين المفهومين .

فى"شجون مصرية" ناقشنا : اعتياد المصريين على مجموعة أفكار غرائبية عجيبة، والارتباط الخفى والتفاعل المستتر بين الدين والتدين والمديونية، وضرورة إعادة النظر فى منظومة القيم السائدة فى المجتمع والغائبة عنه، وطبيعة الأثر الذي يحدثه المثقف فى مجتمعه من خلال أنماط تفاعله مع السلطة السياسية، والرموز المصرية المؤثرة عبر نماذج سبعة متنوعة عرفتهم عن قُرب، وشخصية " رفاعة الطهطاوى " رائد النهضة الحديثة والجوانب العميقة فى شخصيته، وأخيرًا : مفهوم الثورة الثقافية التى لا غنى للبلاد عنها .

أما "شجون عربية" فهو يحتوى على ثلاثة موضوعات أساسية، هى فى واقع الحال ثلاث جماعات كبرى تعيش داخل النسيج العربى العام، وتؤثر فيه بأشكالٍ ومستويات مختلفة . فالفصل الأول يتناول "الداعشية" باعتبارها علامة على الجماعات الإجرامية المسلَّحة التى ترفع شعار الدين وتتوسَّل به لامتلاك الدنيا، بصرف النظر عن الاختلافات الهزيلة والهزلية فى مسمياتها. مع الانتباه للخصائص الجوهرية التى تجمع بين هذه الجماعات متعددة الأسماء، وطبيعة تكوينها والسمات الأساسية لتفكيرها ورؤيتها لذاتها، وللآخرين، وللتراث، وللمرأة .. ومع إشارات إلى المخزيات (الأغراض السياسية غير المعلنة) التى أسهمت فى ظهور الجماعات الداعشية، على تفاوت مسمياتها واشتراكها فى الجوهر.

الفصل الثانى يدل عنوانه على محتواه : المأساة الكوردية. وفيه عدة نقاط تتعلق بطبيعة الأكراد "المسلمون، السُّنة" الذين عانوا طيلة تاريخهم الويلات من العرب "المسلمين، السُّنة "ومن الترك" المسلمين، السُّنة "ومن الفرس"المسلمين، الشيعة". مما يدعونا للنظر، بصدقٍ وحياد، فى صدق وحياد

هذه التسميات التى لا تكاد تدل على شىء! فالأهداف السياسية الخسيسة كانت تعلو دومًا فوق مفاهيم: إسلام، سنة، شيعة. وتجعل الحكومات المسلمة، أو التى تزعم أنها كذلك، تمارس أبشع الشنائع ضد هؤلاء المسلمين.

وفى هذا الفصل استعراض لطبيعة "الكورد" ونشأتهم وهويتهم المراد طمسها ووجودهم المطلوب محوه والفتح الإسلامى لبلادهم.. مرة فى زمن الإسلام الأول، ومرة أخيرة فى زمن انتشار الدواعش. وبين المرتين مرات مريرة، تستجلب الحسرة وتستوجب الاعتذار لأهل "كوردستان" الذين استطالت مأساتهم زمنًا، وتعقمتْ ألمًا، مع توالى السفالات وتتالى القبائح والمذابح .

والفصل الثالث الأخير، فيه ثلاثة موضوعات فرعية تجتمع تحت مظلة واحدة، هى الجماعة العبرية التى اجتمعت اليوم فى دولة إسرائيل.. وفى هذا الفصل الذى يدل عنوانه (عبرانيات) على موضوعاته، نتوقف أولًا بشكل توثيقى عند مجموعة مقالات كتبتها فى منتصف التسعينات من القرن العشرين، وكان عنوانها الجامع هو: المواجهة الثقافية مع إسرائيل. ثم نتوقف عند موضوع تال، له أيضًا طابع توثيقى، هو: مشكلة بروتوكولات حكماء صهيون.. ونتوقف أخيرًا عند بعض اللمحات التى طرحتها فى "سنة اليهوديات" عبر مجموعة محاضرات عامة، ألقيتْ فى القاهرة والإسكندرية خلال العام ٢٠١٤.

* * *

ومثلما هو الحال فى "شجون مصرية" وحسبما جاء فى مقدمتة، فإن فصول هذا الكتاب الذى بين أيدينا، بعضها مقالات منشورة سابقًا، ومنسية

أو مهملة من يومها الأول، وبعضها إعادة كتابة لمقالات سبق نشرها، وبعضها يُنشر هنا لأول مرة. وكلها تسير على طريقٍ واحد، هو: الوعى العميق بالماضى، والغوص فى الحال الحاضر، واستشراف المستقبل .

وأخيرًا، فسوف يصدر قريبًا كتابٌ ثالثٌ (شقيق) لهذين الكتابين سيكون عنوانه: شجون تراثية.. وفيه عدة موضوعات يجمع بينها أن لها جذورًا ممتدة فى ماضينا وتراثنا، وفروعًا تطل على واقعنا المعاصر الزاخر بالمتناقضات.. وبعبارة أخرى: موضوعات معاصرة لايمكن فهمها والتعامل معها، إلا بعد الإحاطة بمقدماتها وأصولها التراثية، الخفية.

د. يوسف زيدان

داعش و الداعشية

حين نُشرت فى منتصف العام ٢٠١٤ بعضُ الأخبار المبهمة عن تحولات ثورة " الربيع العربى " فى سوريا، وتسربت عبر وسائل الإعلام الأجنبية أولى الدعايات الداعشية. سألتُ عشرات الآلاف المتابعين لصفحتى على الفيسبوك، عن معنى كلمة "داعش" وما يعرفونه عن "الداعشية" فلم يدرك معظمهم ما أسأل عنه، وظنَّ كثيرون أن "داعش" هو اسمُ شخصٍ قديمٍ ما عاد يعيش فى هذا الزمان! وبعد أسابيع، عرف معظم الناس معنى داعش وأفعالها الشنيعة فى سوريا و العراق، خصوصاً بعدما راجت الأخبار عنهم فى وسائل الإعلام (الأجنبية أولًا، ثم العربية) وانتشرت على صفحات التواصل الاجتماعى والمواقع الإلكترونية، مقاطع فظيعة للدواعش وهم يهدمون آثار العراق ويدمّرونها بالمدافع، مثلما دمّرت "طالبان" من قبل تماثيل بوذا الأثرية العملاقة فى بلدة "باميان" الأفغانية، على مرأى ومسمع من العالم أجمع.. ولمن نسوا هذة الواقعة المريعة، نذكّرهم بأن أيامها حاول الجميع بما فيهم مشايخ الأزهر وحكومات الدول المسلمة، إثناء زعيم طالبان "الملا عمر" عن عزمه تدمير الأثر التاريخى، السابق بناؤه على ظهور الإسلام. فلم يستجب. وكانت من وجوه المناشدات ووسائل الإقناع، أن المنطقة قاحلة فقيرة ولا دخل لأهلها إلا من السياحة الخارجية وما ينفقه البوذيون الذين يحجّون إلى هذا المكان المقدس عندهم، بسبب وجود التمثالين فيه. فإذا بالملا عُمر يرفض ذلك قائلًا:

أريد أن ألقى الله كمحطم أصنام، لا تاجر آثار.. ونكاية فى العالمين، شرقاً وغرباً، دمر هذا المهووس التمثالين بمدافعه (غريبة الصُنع) أمام الكاميرات العالمية، وهو مبتهج. وبعدها بسنوات طوال مات "الملا عمر" فى هدوءٍ. ولا ندرى ما الذى فعله الله معه بعد موته، ولن يدرى بذلك أحد، أبدًا.. نعود إلى الدواعش، و إلى شهر رمضان الذى جاء فى صيف العام ٢٠١٤، وإلى أحوال الناس ببلادنا آنذاك. [١]

الجهالة ومستويات الدلالة

الناس فى مصر ومعظم بلاد العرب، يغلب على أغلبهم حالُ السبهللة. و بينما هم منهمكون بشدةٍ واهتمامٍ عظيم، فى ملاحقة مسلسلات شهر رمضان الدرامية الطافحة بالتفاهة، كان مسلسل الهول الداعشى يتتابع فى شرق سوريا و غرب العراق، و يتسع مداره بشكلٍ لافتٍ لنظر الذين لا ينظرون طيلة الوقت فى شاشات الدراما التلفزيونية التى بدت فى ذاك العام، كأنها محاولة إلهاء خطيرة النتائج. تتم بقصدٍ وخُبثٍ، أو بخيبةٍ وحُمْق.

وفجأة، فُجِعَ غالبية الناس بما عرفوه من أفعال داعش: تهجيرُ المسيحيين من شمال العراق، بلا أى اعتبار لكونهمْ قد سكنوا هناك من قبل ظهور الإسلام..هدمُ مقامات الأنبياء القدماء، بلا أى اعتبارٍ للقيمة الدينية أو الأثرية لهذه المبانى العتيقة..دعوةُ النساء للختان، ثم المبادرة الداعشية للإشراف على

(١) هذا الفصل، نُشر فى صيف ٢٠١٤ ولم أغيِّر فيه حرفًا واحدًا، وجعلت الإضافات فى الهامش، كإشارة إلى أن المسألة الداعشية كانت واضحة المعالم من اليوم الأول، لكن كثيرين كانوا يجادلون فى الحق البيِّن، جهلاً أو خُبثًا..فتأمَّلوا.

تقطيع فروج الرُّضَّع من الإناث ليصرن مسلمات صالحات فى المستقبل.. تهديدُ المخالفين لهم ممن وقعوا تحت سيطرتهم، كى يُقَدِّمُوا نساءهم لأوباش داعش تنفيذًا لما يُسمى جهاد النكاح.. قطعُ يد رجل قالوا إنه سارق، علانية و على مرأى من الناس و الأطفال فى "عَرَصَة" واسعة، باستعمال ساطورٍ غيرِ مسنون.. إحياءُ ما يتوهمون أنه "سُنة" نبوية، مثل قولهم: إن "الذبح" على الملأ فريضةٌ إسلامية غائبة لابد فى إحيائها بذبح المسلم لغير المسلم، وللمسلم الذى يحاربه.. الحرق أحيانًا، بديلًا عن الذبح.. الزعمُ بأنهم سوف يحاربون إسرائيل يومًا، ولكنهم أولًا سوف يقيمون الخلافة الإسلامية فى سوريا والعراق تحت المسمى المختصر(داعش) والخلافة الإسلامية فى مصر وليبيا تحت مسمى (دامل).. وكانت آخر فتاواهم المُخْتَلَّة: لابد من هدم كعبة مكة، لأنها كانت قديمًا بيتًا للأوثان!

وقد تدفقت أخبارُ " داعش " عبر وسائل الإعلام، متزامنة مع انشغال الناس فى مصر بارتفاع أسعار السجائر و الخبز غير المدعوم، وفى غمرة بل أوج اهتمامهم العظيم بسيل المسلسلات الرمضانية، وسيل المآسى الفلسطينية التى جرت بسبب الرد الإسرائيلى الوحشى على أفعال "حماس" الوحشية ضد ثلاثة إسرائيليين خُطِفُوا وقُتِلُوا فى توقيتٍ مُرِيب..فى هذا الخِضَم المُرِيع، انبرى هؤلاء الذين أسميتهم قبل أعوام "الكتائب الإلكترونية المُوَجَّهَة"[١] فى التشويش

(١) فى إطار استعداد " الإخوان " للقفز فوق سلم السلطة السياسية و الوصول لحكم مصر، وكأداةٍ من الأدوات اللازمة لذلك، قاموا بتجنيد عدد كبير من الشباب يتولى كل واحد منهم عدد كبير من الحسابات الوهمية على الفيسبوك وتويتر.. وراحوا يشوِّشون على الناس بموجات عاتية من التعليقات والمشاركات الموهمة بما يريد الإخوان نشره أو معارضته، بحيث يبدو أمرهم كأنهم تيار فعلى فى المجتمع، ذو حضور كثيف.

على الأخبار الداعشية، والتهوين منها، والزعم بأنها أخبار غير صادقة ومُفبركة يبثُّها الإعلام المصرى لتخويف الناس من الإسلاميين، ولصرفهم عن الهدف الأسمى الذى يسمى فى أذهانهم العليلة: عودة الشرعية وحُكم الإخوان!

للوهلة الأولى، تبدو دلالة كلمة " داعش " مستمدة من الأحرف الأولى للكلمات الأربعة "دولة الإسلام فى العراق والشام" ولن نتوقف هنا عند المقابل الإنجليزى الذى يُنطق به هذا الاسم الشنيع مطابقًا للاسم الجليل: إيزيس.. فهذه الوقفة ستأتى فى سياقها بعد قليل.

وبعيدًا عن المستوى اللفظى الساذج لكلمة "داعش" ومن بعده، تأتى الدلالة الاصطلاحية الأعمق. إذ تدل هذه الكلمة بوضوحٍ سافرٍ على نمط من الجماعات الإسلامية، متعددة الأسماء متوحدة الهدف، تزعم أنها الساعية إلى إحياء الخلافة الإسلامية. الرجوع بالزمن إلى الوراء من أجل هدف مستحيل، هو العيش وفقًا لما كان سائدًا فى عصر النبوة وبدء انتشار الإسلام، بما يتضمنة ذلك من النكوص الارتدادى إلى حالة الحرب و الغنائم و الأسلاب من النساء و الأموال، دون الالتزام تجاه الآخرين إلا بما يتم انتقاؤه من الفتاوى الموافقة لهوى هذه الجماعات.

ثم يأتى المستوى الدلالى الأهم، ليفسِّر طبيعة هذه الجماعات كلها على اختلاف مسمياتها وعصورها: قرامطة، حشاشون، بوكو حرام، داعش، دامل، أنصار المقدس، جيش الإسلام، لواء خراسان.. وغير ذلك من التسميات الدالة على فورة الغرائز البدائية لدى الأفراد والجماعات الكافرة بحضارة البشر وتطور المجتمعات الإنسانية، تحدوها الرغبة فى الارتداد للحالة الهمجية الأولى التى

عاشتها الإنسانية طيلة الألف ألف سنة (مليون عام) التى سبقت تكوين القشرة الحضارية الرقيقة التى صنعتها بدأبٍ وصبر، خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة، عقولٌ نابهة ونفوسٌ إنسانية راقية مُهدت طريق الحضارة بكل لوازمها: الفن، العلم، المعرفة، الفلسفة.. وغير ذلك.

وعلى ما سبق، فإن قولنا "داعش، دواعش، داعشية" فى الصفحات التاليات، إنما نقصد به هذه المعانى الثلاثة مجتمعة: الجماعة المعروفة التى ظهرت فجأة (أو بالأحرى: أُظهرت فجأة) فى شمال سوريا وسيطرت بسرعة على الشمال الغربى من العراق، والجماعات المشابهة لها فى تاريخنا القديم وواقعنا المعاصر، والنزعة الغرائزية الكامنة فى تلك البقعة المظلمة التى بقاع النفوس.

*   *   *

داعش، دامل، أنصار الشريعة، جبهة النصرة، التكفير والهجرة، الجماعة الإسلامية، أنصار بيت المقدس، جماعة مُحبى الآلام، جنود الرب..هى مسمياتٌ متعدِّدةٌ تعبر عن جوهر واحد، هو همجية الحالة البدائية التى حجبتها الحضارةُ بقشرةٍ رقيقة من الرقىّ قامت على أسس متوارثة.. منها فكرة "الضمير" التى اخترعتها مصر القديمة، مثلما اخترعت مفهوم "الحب" و غيره من المعانى الإنسانية المتسامية التى توالت عبر الأجيال، حتى ظنَّ كثيرٌ من الناس أنها "فِطْرَةٌ" فى الإنسان.. ومنها الفنون التى هزم بها الإنسان إحساسه بالفناء، وسعى من خلالها للخلود (أقصد هنا الفن الرفيع، لا الهنك و الرنك الذى نسميه اليوم فى بلادنا فن) وقد عملت هذه الفنون على الارتقاء بالنفس

الإنسانية من المستوى البدائى الأكثر عراقة وَكُمُونًا فى النفوس بحكم امتداده الطويل، إلى المستوى اللائق بحياة "الإنسان" اللائق بصفة الإنسانية.

غير أن بعض الحيوانات البشرية المتهيِّجة هياج الهمج من البشر فى أزمنة ما قبل الحضارة، يسعون إلى استعادة المُتَع المُنْدَثِرَة، الكامنة.. الفتك.. الانتهاك.. القسوة المُطْلَقَة.. الاستعلاء بالأسلحة والعضلات وليس بالمنطق أو بالعقل.. إبادة المختلف ثم إفناء الذات بالنزوع الانتحارى.. إزاحة الأنوثة التى كانت مقدسة فصارت مُدنَّسة.. الاستيلاء على النساء بغرض إرواء الشهوة الهمجية للذكور.

ولا شىء يُعينُ على كل ما سبق و يمهّد له، مثل ادّعاء اليقين التام واستبعاد أى احتمال للخطأ. وهو الغاية التى يجعلها "الدين" ميسورةً لهم. الدين الذى يفهمونه هم (وأغلبهم جهلاء) و يقتلون به ويفتكون بالمخالف لهم، وبه يفتكون بأنفسهم فى نهاية المطاف أملًا فى إشباع الشهوات البدائية المهووسة فى الجنة.

وأول ما نلاحظه فى الظاهرة الداعشية المعاصرة، من حيث المستوى الدلالى لاسمها، هو كونها مختصر الحروف الأولى. وتلك مسألة لغوية لم تعرفها الثقافة العربية الإسلامية عبر تاريخها الطويل، فلم يشتهر فى تاريخنا اسمٌ تراثى مأخوذٌ من الأحرف الأولى لعدة كلمات. فهى خاصية حديثة فى اللغة الإنجليزية، وقد شهرها الإعلام الغربى وخصوصًا الأمريكى منه، على النحو المعتاد فى قولهم "يو إن" كمختصر لاسم الهيئة الدولية الأكبر: الأمم المتحدة. أو قولهم "سى آى إيه" كاختصار مأخوذ من الأحرف الأولى لوكالة

الاستخبارات المركزية (الأمريكية) أو قولهم "إف بى آى" كاسمٍ مختصر لمكتب التحقيقات الفيدرالى (الأمريكى).. فهل تدل طريقة اشتقاق اختصار "داعش" بهذه الطريقة الغربية، الأمريكية تحديدًا، على الأصل والمصدر الأول الذى نبعت منه مؤخرًا تلك الجماعات؟ [1]

كما نلاحظ أن راية (داعش) سوداءَ اللونِ، تحمل صورةً يظنُّ الجُهَّالُ أنها "ختم نبى الإسلام" مع أننى ذكرتُ قبل سنواتٍ فى عدة مقالات، وفى فصلٍ خاص من كتابى "دوامات التدين" أن هذه الأختام النبوية مشكوك فيها تمامًا، ومأخوذة من رسائل النبى المشكوك فيها. والأرجح أنها خطأ تاريخى أو تدليسٌ دعائى أو تزوير متعمّد. وهو ما يدل على طبيعة تفكير هذه الجماعات وطريقتها فى التقاط الرموز غير المؤكَّدة، وغير المنكرة عند عوام الناس، لإضفاء قداسة وهمية على هذه "الراية" وعلى الذين يحاربون تحتها، ويقتلون، وينهبون، وينكحون السبايا، ويروِّعون الآمنين من المسلمين و غير المسلمين.. بلا أىِّ اعتبارٍ لتعريف "المسلم" فى الحديث النبوى بأنه: من سلم الناس من لسانه ويده.

* * *

(١) كان طرح هذا السؤال فور ظهور البشاعات الداعشية غريبًا وصادمًا، وبعد شهور ظهرت الدلائل على أن هذه الجماعة وفروعها، مدعومة من دول بعينها تأتى فى مقدمتها تركيا و أمريكا.. وللدعم وسائل خفية!

قلتُ مرةً، فى سياقٍ آخر، إن أصول الأشياء جميعًا أو على الأقل معظم هذه الأصول، نبعت أولًا من مصر ثم انتشرت فى أنحاء الأرض. وقد بدأت بمصر، ظاهرةُ الاستنادِ إلى الأساس الدينى للحكم السياسى، والاحتكام إلى العقيدة كوسيلةٍ مُثلى للوصول إلى السلطة والبقاء فيها. فعل ذلك فراعنة ادعوا أن الآلهة كلفتهم بحكم البلاد، وسعى إلى ذلك أساقفةُ الإسكندرية القدماء فنجحوا حينًا ثم فشلوا، وسعى إليه "المقوقس" ففشل فشلًا ذريعًا. وحاول فعله "القرامطة" وفشلوا، والفاطميون فنجحوا، والدروز ففشلوا، والمماليك فنجحوا حينًا (بإحياء الخلافة العباسية فى القاهرة) ثم فشلوا بسبب الترهُّل السلطوى وبسبب اجتياح العثمانيين للبلاد باسم "الخلافة الإسلامية السُّنِّيَة" فى مواجهة المدّ الشيعى لدولة الصفويين بإيران (بلاد فارس القديمة).

وفى الزمن الحديث والمعاصر، استمرت هذه الظاهرة العجيبة مع ما سوف يسمى "تيار الإحياء الدينى" وهو الاتجاه الذى قاده جمال الدين الأفغانى الذى عاش بمصر حينًا وسكن القاهرة فى القرن التاسع عشر، وكان كثير الجلوس على مقهى "متاتيا" الذى كان موجودًا بأسفل المبنى الذى يحمل هذا الأسم[1] قرب "جراج الأوبرا" الحالى، متعدِّد الطوابق. وقد وصف المؤرّخون هذه الجلسات بأن الأفغانى: كان يجلس على مقهى متاتيا، يوزِّع السعوط (النشوق) بيمناه، والثورة بيُسراه.

---

(١) هو اسم المهندس الذى قام بتصميم هذا المبنى البديع، الذى تمت إزالته قبل سنوات فى غفلة من الزمان.

فلما سقطت الخلافة العثمانية سقوطها المدوّى فى تركيا، أو بالأحرى أُسقطت وأُلغيت على يد كمال الدين أتاتورك، سعى الملك فؤاد فى مصر والملك سعود فى نجد والحجاز، لاحتلال هذه الوظيفة الشاغرة. ونادى كلاهما أو تنادى، ليكون هو"خليفة المسلمين" فانتعشت أحلامُ الجماعة التى خرجت من عباءة (محمد رشيد رضا) تلميذ الشيخ الإمام "محمد عبده" تلميذ الشيخ الوافد "الأفغانى" وهى الجماعة التى أعطت نفسها الاسم الذى صار لاحقًا مشهورًا: الإخوان المسلمين.

وخلال الثمانين عامًا الماضية، تنازع "الإخوان" والسلطات السياسية فى مصر، فتوالت ويلاتٌ كثيرة فى طريق سعيهم إلى السلطة السياسية. فكانت الاغتيالاتُ الإخوانية والمطارداتُ البوليسية لأعضاء الجماعة، وكان التأسيس الإسلامى للحكم بتجنيد عوام الناس و جُهّالهم، وكان الاضطهاد الحكومى المُرِيع لهذه الجماعة.. وخلال هذا المسار المرير، كانت الفرصة سانحة أمام مجموعات أخرى تدَّعى هى الأخرى أنها (إسلامية) أو أنها أكثر من بقية المصريين (إسلامًا) وبالتالى فهى الأحق بالحكم، والأقدر على إحياء حُلم الخلافة (الخرافى) و تحقيق وَهْم تطبيق الشريعة. دون تبيانٍ واضحٍ لمفهوم الشريعة عندهم، وعلى أى مذهبٍ فقهى واتجاهٍ أصولى وعقائدى سوف يطبِّقونها.

وقد تنوعَّت فى مصر مسمياتُ هذه الجماعات المتوسِّلة بالدين إلى الدنيا، فكان منهم جماعة يسميها أهل الصعيد فى السبعينيات والثمانينات (السُّنيين) ويسمون أنفسهم الوهابية. مع أن أصحاب المذهب الوهابى على المذهب الحنبلى فى الفقه، بينما معظم المصريين على المذهب الشافعى،

والمذهب الفقهى الرسمى للدولة المصرية هو المذهب الحنفى! بمعنى أن الاختلاف الفقهى لم يعد هو المهم، فى مقابل الاتفاق فى أصول الدين (علم الكلام).. وكان منهم جماعاتٌ أخرى متباينة المنازع متوافقة فى العداء لبقية المجتمع، وسميت بمسمياتٍ متعددة منها: التبليغ والدعوة، التكفير والهجرة، الجماعة الإسلامية، السلفية الجهادية، العائدون من أفغانستان. وغير ذلك من الجماعات التى يجمع بينها أنها إسلامية الإطار (كأن معظم المصريين ليسوا مسلمين) وساعية إلى السلطة (كأن السلطة ليست هدفًا لمعظم الناس) ومتشحة بمسحةٍ دينية شكلية أشهرها اللحية (كأن القساوسة وكفار قريش وكارل ماركس ونُسَّاك الهنود، ليسوا مُلتحين).

وبصرف النظر عن تعدُّد المسميات والسمات العامة لهذه (الجماعات) فإنها جميعًا تجليات لجوهرٍ واحد،[1] وتحكمها كلها طريقةُ تفكيرٍ واحدةٍ تعتمد مبدئيًا على إعطاء الأولوية والأفضلية لعضو هذه الجماعة أو تلك، على بقية الناس، استنادًا لمعيار "الإيمان". وهو مع احترامى له، معيارٌ مُرَاوِغٌ لا يمكن ضبطه أو تحديد ملامحه بدقة، لأن الإيمان فى نهاية الأمر سِرٌّ قائمٌ بين الإنسان والله، وهو يزيد و ينقص (حسبما ورد بوضوح فى حديثٍ نبوىٍّ مشهور) فكيف يكون الإيمانُ معيارًا للمفاضلة بين الناس؟

(١) أثناء مراجعة بروفات هذا الكتاب، بدايات العام ٢٠١٦ كانت الجماعات الإسلامية المتناحرة فى سوريا قد بلغ عددها أكثر من سبعين، منها داعش! ولكل جماعة منها اسم تم اختياره على المنوال المعتاد: جبهة النصرة، لواء القدس، لواء الجهاد، فرسان الحق، فيلق الرحمن، جنود الشام، أنصار الشام، جيش الفتح، أنصار الشريعة.. وغير ذلك من التسميات الطنَّانة المتشابهة، لهذه الجماعات المسلحة المتقاتلة فيما بينها بضراوة.

والفارق بين هذه الجماعات جميعها، هو فارقٌ فى الدرجة لا النوع. و"الوفاق" منعدمٌ فيما بينها، و"الشقاق" قائم بالضرورة بين أفراد كل جماعة وبعضهم البعض، وبين هذه الجماعة وغيرها من الجماعات الأخرى، وبين أفراد هذه الجماعات مجتمعةً وبقية أفراد المجتمع الذين لا ينتمون إلى جماعة دينية معينة.

الاحتكام لمعيار "الإيمان" يؤدى بالضرورة إلى التشوُّش والتشوُّه فى رؤية الفرد لنفسه، لأن "كُلُّ ابنُ آدم خَطَّاء". وفى نظرته الخاصة لجماعته الأقربين، لأن "لِكُلٍ جَعَلْنَا مِنكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا". وفى رؤيته لبقية أفراد المجتمع بل ولعموم البشر، لأن القرآن قال: قُتل الإنسان ما أكفره.. "الآية".

و على أرض الواقع تسير الجماعة الدينية قُدُمًا، على المنوال الثلاثى الذى تحدَّثت عنه تفصيلًا فى كتابى "اللاهوت العربى وأصول العنف الديني" فتمرُّ بأفرادها عبر محطات: الإنابة عن الله فى الأرض، الخروج من ديار الكفر على أمل العودة إليها بعد حينٍ كحكام، الإبادة للمخالفين.. فيكون المنطلق تمهيدًا للرجوع بالمجتمع الإسلامى إلى نقائه الأول، بحسب أوهامهم، ووفقًا لإنكارهم لحقيقة بدهية: عقارب الساعة لا تعود إلى الوراء. لكن نجاح بعض التجارب المشابهة، مثل دولة الملالى فى إيران المعاصرة، يُغرى هذه الجماعات "الإسلامية" بالاستمرار فى أوهامها وفى إنكارها للبدهيات.

وعندما يصير القتل شِرْعَةً ومِنْهَاجًا، يستذئب المتحمسُ دينيًا وتصير له طِبَاعُ الضِبَاع، فلا يُرَاعِى حُرمةً لغيره.. لماذا؟ لأن جميع المخالفين له والمختلفين معه، هم عنده على خطأ. لماذا؟ لأن الحقيقة عنده واحدة ومُطلقة، وهو وحده الذى يمتلكها، ولذلك فالآخرون كلهم مخطئون ويستحقون الويل.

لماذا؟ لأن المخطئ فى العقيدة والمذهب والديانة، لا يستحق الحياة التى وهبها الله له.. فيكون قتلٌ، ويكون فتكٌ، ويكون كُفرٌ، فيكون فُجرٌ، وتكونُ داعش.

* * *

وفى غمرة الهرج الذى أدى بالثورة المصرية (يناير ٢٠١١) إلى فقدان البوصلة، ومن ثمَّ إلى اقتراب الإخوان من سُدَّة الحكم المصرى، ثم وصولهم إلى كرسى الرئاسة بغتةً. اهتاجت فى نفوس كثيرٍ من الناس تلك المشاعر "البدائية" ذات الطابع الهمجى السائد فى الزمن السابق على الحضارة الإنسانية، واستعلنت فى الشارع المصرى مشاهدُ غريبة، نكاد اليوم ننساها، لأننا نريد أن ننساها، ولكن لا بأس الآن من التذكير بها أو ببعضها. مع العلم بأنها كان إشارات مراوغة وخادعة (أو بالأحرى: فقاعية) تدلُّ على رغبة فريقٍ محدود العدد من المصريين، فى النكوص إلى الحالة الداعشية التى أطلت بواكيرها فى وقائع عديدة كان منها: خروج الرعاع المتخلِّفين إلى ميدان التحرير بالآلاف فيما سُمِّى آنذاك "جمعة قندهار".. الزعم الإعلامى بأن الإسكندرية هى "عاصمة السلفية" مع أن معظمهم يسكن العشوائيات التى لحقت بحواف المدينة. جرأة أحد المُلتحين وإعلانه فى مؤتمر شعبىٍّ حاشد، أن مرسى مطروح عاصمة لدولة الإسلام.. انتشار القول الساذج إن الشيخ السفلى "فلان" هو أعلم أهل الأرض.. إلقاء الصبية من فوق السطح فى الإسكندرية على مرأى ومسمع من جميع الجيران والناظرين.. انتشار الشعارات الطنَّانة التى تداعب مشاعر العوام، مثل: على القدس رايحين شهداء بالملايين، خيبر خيبر يا يهود،

شرعية شرعية.. الإسراف فى طرح غرائب الأفكار وأكثرها إدهاشًا، بلا مناسبة، مثل قولهم: المسيحيون مشركون بالله، الإسلام هو الحل..

وفى لحظاتٍ مريرةٍ مرت بنا فى الأعوام الثلاثة التالية، كاد الحالُ ينفلت فى مصر فيتَّسع بها المدى أمام النزعة الداعشية الهمجية. كاد ذلك يحدث مرات عدة وفى عدة مناسبات، منها: أحداثُ الكُشح، اعتصام رابعة، استعصام كرداسة، حصار مدينة الإعلام، محاولة نشر الرعب فى أعقاب تمرُّد ٣٠/٦، الإجرام الذى جرى بسيناء.. ولكن، لم يرض عمومُ المصريين عن تلك النزعات "الداعشية" وأعلنوا التحدى لها، وخرجوا فى وجوه هؤلاء المهووسين. فأنقذوا الجيش المصرى من المصير الذى آلت إليه الجيوش العربية التى انهارت فى العراق وسوريا وليبيا واليمن، وأنقذوا الشرطة فى اللحظة الأخيرة، ولم يتمكَّن أصحاب الصخب التدينى المهووس من تمهيد الأرض المصرية للاستقرار بها. فانسربت الداعشية إلى الأرض الفضاء المُهَيَّئَة لهم فى بلدان عربية أخرى، على أمل تكرار الكَرَّة والعودة يومًا لمصر.

وطريقة تفكير هذه الجماعات جميعًا، تكاد تكون واحدة، ولا اختلاف بينها إلا بمقدار ما تسمح بظهورها وانتشارها تلك الظروف السائدة فى هذا البلد أو ذاك، وبقدر الاهتراء الذى يسمح بانفجار هذه النزعات البدائية الكامنة فى أعماق النفس الإنسانية منذ كان البشر يسكنون الكهوف.. ومن هنا، فإن النظرة (الإقليمية) للتجليات الداعشية توقع الناظرين فى جدال حول تفاصيل لا حصر لها، قد تضيع معها الأفكار والمنطلقات الأساسية الجامعة بين اتجاه هذه الجماعات المريعة. بصرف النظر عن مكانها وزمانها.. فمن ذلك :

الذبح

أثناء فورتها الأولى، أفتى "مفتى" داعش فى غمرة الانهماك فى ذبح المسلمين السنة من أفراد الجيش العراقى، والمسلمين الشيعة من سكان القرى، والأزيديين، والمسيحيين.. فى غمرة هذا (الذبح) الذى روعت حوادثه العالمين، جاءت الفتوى :الذبح فريضة إسلامية غائبة! يعنى يجب على المسلم استعادة العمل بها. وبالطبع، ليس المقصود هنا ذبح الخراف يوم عيد (النحر) وإنما المراد ذبح البشر: المشركين، الآخرين، المخالفين، المختلفين، المتخالفين.. ومن لا يذبح معنا فهو ليس منا، ويجب ذبحه تقربًا إلى الله.

واستدل "المفتى" بالحديث النبوى الشهير: جئتكم بالذبح. وهكذا جعلوا (الذبح) سُنةً نبوية يجب أن يراعيها على زعمهم كل مسلم، نظرًا لورودها فى صحيح الأحاديث! وقد ورد فعلًا فى كتب الصِحَاح (الأحاديث النبوية الصحيحة) ما يمكن أن يُستدل به على ذلك، إذ روى الإمام أحمد بن حنبل والإمام البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعشر من قريش: أرسلنى ربى إليكم بالذبح.. وروى (ابن وهب) بإسناد صحيح على شرط الإمام مسلم : قتل رسول الله (عقبة بن أبى معيط) يوم جاءوا به أسيرًا من موقعة بدر، فذبحه النبى ..وجاء فى كتب السيرة النبوية أيضًا أن النبى صلى الله عليه وسلم طعن (أبى بن خلف) فى عنقه برمح، فظل الرجل يخور كالثور ثم مات مذبوحًا.

وللفقهاء على اختلاف أطيافهم ومذاهبهم آراء مختلفة فى تلك الوقائع، فحديث "جئتكم بالذبح" يراه البعض (الداعشى) سندًا يؤكد فريضة الذبح، ويراه البعض الآخر أنه مجرد عبارة صدرت عن النبى فى مُشادَّة مع المشركين

كان بينهم (أبوجهل) عند الكعبة، إذ كان المشركون يُضايقُون النبى ويتوعدونه بالويل. فرد عليهم بقوله: أرسلنى ربى إليكم بالذبح. فقال له أبوجهل لتهدئة الحال: يا محمد ما كنت جهولًا (يعنى: لم نعرفك عنيفًا) فرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم، بقوله: وأنت فيهم (يعنى، أنت أيضًا سيتم ذبحك).. وقد قال بعض الفقهاء إنه كلام لا يجب الوقوف عنده، وقال فقهاء آخرون: إن النبى لا ينطق عن الهوى، وقد أُوتى جوامع الكَلِم، بل ذبح فعلًا (عقبة بن أبى معيط) الذى كان يومها جالسًا مع (أبى جهل) وجماعة قريش. ذبحه بعد مرور فترة طويلة من الواقعة الأولى (المشادة الكلامية) مما يعنى أن النبى كان يقصد ما يقول. وهكذا يؤكد كل داعشى، أن الذبح فريضة على المسلم.

تقودنا هذه المسألة الدقيقة المريعة (فريضة الذبح) إلى طرح مسألة أخطر منها، هى سطوة النصوص الثوانى. ومقصودى بالنصوص الثوانى حسبما أوضحت فى أكثر من مناسبة: النصوص الدينية التى تأتى ظاهريًا فى المرتبة الثانية بعد النص "الأول" المؤسِّس. ففى اليهودية، النص الأول هو(التوراة) والنص الثانى هو التلمود، وفى المسيحية النص الأول هو البشارة (الإنجيل) والنص الثانى هو أعمال الرسل واعترافات الآباء وقوانين الإيمان و اللعنات على غير المؤمنين، وفى الإسلام النص الأول هو (القرآن الكريم) والنص الثانى هو الأحاديث الشريفة والسيرة النبوية.

وقد دَلَّت تجارب التدين، السياسية منها بالذات، على أن النصوص الثوانى هى الأقرب دومًا للتطبيق فى الحياة العملية والأشد التصاقًا بسلوك الناس من تلك النصوص الأولى (التوراة، الإنجيل،القرآن) التى لا تختلف كثيرًا فيما بينها، وغالبًا ما تكون إشارية ومجازية وقابلة للتأويل وغير مناسبة لأفهام الجهلة والبسطاء. أما النص الثانى،فهو تطبيقىٌ، واضحُ، مستمدٌ من مقدَّسين وبالتالى فهو مُقَدَّس.. ومع مرور الوقت، يزيح النص الثانى ما فوقه فيصبح هو

المهيمن على فكر وسلوك هذه الجماعة أو تلك. ولذلك، كان الخليفة عمر بن الخطاب يتهيَّب من تدوين الأحاديث النبوية، وذكر المؤرخون أنه غضب بشدة عندما وجد بعض أوائل المسلمين يجمعون الأحاديث النبوية فى رقوق (صفحات من الجلد المرقق) فأمر بإحراقها وقال غاضبًا :أمشناةٌ كمشناة اليهود.. يقصد (المشنا) التى تشكل مع (الجمارا) ما يعرف باسم: التلمود[1].

ولم يلتزم المسلمون بموقف الخليفة عمر بن الخطاب، وعادوا فى القرن الثالث الهجرى لتدوين الأحاديث النبوية، وجمعوها فى كتب ربما لاحتياج الفقهاء إليها لتفصيل الأحكام الدينية وإحكامها، أو لشغف عوام المسلمين بمعرفة سيرة النبى وتفاصيل حياته، أو لتدعيم وجهات النظر المختلفة فى المسائل الدينية بتأكيدها بأقوال النبى حين يتعذر الاستدلال عليها بآيات القرآن. المهم أن الأحاديث جُمعت، وصارت حجةً وأداة احتجاج، ثم صارت مع الوقت هى المعلوم من الدين بالضرورة.. وعبثًا حاول العلماء المسلمون التنبيه إلى أن الأحاديث النبوية "ظَنِّيَّة الثبوت" وليست مُطْلَقَة اليقين. قال ذلك ابن النفيس وابن الصلاح المحدث الشهير وغيرهما، فلم يعتد الفقهاء بذلك ولم يشرحوه للناس، بل أخفوه عنهم لغاية فى نفوسهم .وبالطبع، فلن نخوض هنا فى مسألة يقينية الأحاديث النبوية، كيلا نثير مزيدًا من الصخب والاهتياج عند أصحاب المصالح، والمتكسِّبين بالدين، والعاملين بقاعدة (عُضَّ قلبى ولا تَعُضَّ رغيفى) فدعونا من النظرة العامة لمسألة الذبح، ولننظر فى الجانب العملى منها والتطبيقى.

*　　*　　*

---

(١) كلمة المشنا حرفيًا، تعنى فى العبرية: الكتابة الثانية.. ومن هنا قال: مثناة.

يرى بعض المعاصرين أن أفعال"داعش" ليست من الإسلام فى شىء، وأن هذه الفظائع يرتكبها عملاء لأمريكا وإسرائيل والماسونية العالمية والقوى الإمبريالية، وغير ذلك من التُرَهَات والأقاويل الباطلة السخيفة. وهم فى واقع الأمر لا يدركون أن (الذبح) وقع دومًا، ومن قبل ظهور أمريكا وإسرائيل والماسونية وسائر هذه التبريرات الوهمية. ففى القرن الثالث الهجرى، ذبح القرامطة الحُجاج جميعهم يوم وقفة عرفة، وخلعوا الحجر الأسود من مكانه، وتوقفت شعيرة الحج سنوات. وقد فعلوا ذلك باسم الدين! وفى القرن الأول الهجرى ذبح الأميرُ خالد عبدالله القسرى، المفكّر المجتهد "الجعد بن درهم" بسكين فى المسجد، تحت المنبر! عقب انتهائة من إلقاء خطبة عيد الأضحى، قال للناس: قوموا إلى عيدكم وأضحياتكم، أما أنا فسوف أضحِّى بالجعد بن درهم وذبحه. وفى فجر الإسلام ذبح الخوارج الصحابة، وذبح الأمويون آل بيت النبوة المطالبين بالحكم السياسى. وفى العصر الحديث، ذبح الوهابيون المسلمين الذاهبين لأداء فريضة الحج، وذبح شابُ جاهل الأستاذ نجيب محفوظ، وذبح المتحمسون الذين أسماهم إعلامنا الساذج (السلفيين) أربعة من الشيعة، فى ضاحية "أبو النمرس" اللصيقة بالقاهرة يوم الرابع والعشرين من شهر يونيو لعام ٢٠١٣.

فهل (الذبح) مؤامرة أمريكية إسرائيلية ماسونية ..إلخ، أم هى النوازع الهمجية الكامنة فى نفوس الناس منذ الأزمنة البدائية الأولى، وقد وجدت فى التدين مستندًا يبرر أفعالها المرّوعة، ويعطيها غطاءً شرعيًا اخترعه عوام المسيحيين وجُهّالهم يوم تصايحوا فى الشوارع :باسم الرب سوف نطّهر أرض الرب ..ثم سار على منوالهم عوام المسلمين وجُهَّالهم؟

قبل شهرين من اندلاع شرارة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ كنتُ أستعرضُ مع الحاضرين بصالون القاهرة، الحالة المصرية العامة (حيث كان المعتاد تخصيص نصف ساعة من جلسة الصالون الشهرى، لمناقشة الأحوال العامة فى مصر) فقلتُ يومها إننى وجدت على صفحات الفيسبوك شيخًا ذا لحية "مُخِيْفَة" يفتى فتوى عجيبة، تقول: إذا وجد المسلم قطعة أثرية من الذهب، على هيئة تمثالٍ أو شكلٍ قديم، فعليه أن يطمس ملامحها ويبيعها ذهبًا، فتكون له مالًا حلالًا.. وبطبيعة الحال، غاظنى هذا الكلام فقلتُ: لا أعرف من أين أتى هذا الشيخ الذى اسمه " محمد حسَّان " بفتواه هذه، ولا أعرف على أى مَذْهَبٍ فقهى يُفْتِى هذا الرجل!

وفى اليوم التالى نُشرتُ محاضرتى على "يوتيوب" فانهالَ الهجومُ علىَّ كالسيل الجارف، وجاءتنى عشرات الرسائل الغاضبة من أناسٍ ملتحين كان منهم مَن قال لى: كيف تنتقد الشيخ محمد حسان الذى لم يأت منذ رسول الإسلام مثله.. ومنهم مَن قال لى: يا جاهل، لا تتحدث عن أسيادك من أهل العلم والمعرفة والفقه.. ومنهم مَن قال لى: هذا حقًا زمن الرويبضة! وكان ضمن الرسائل، عديدٌ من عبارات الوعيد والتهديد والسب والشتم الذى استغربت يومها أن تصدر عن مثل هؤلاء "المتدينين" ولكن كان بين هؤلاء شخصٌ عاقلٌ، قال بهدوء: واضح أنك لا تعرف مَنْ هو الشيخ محمد حسان.

وقد لفت نظرى فى هذه الرسائل الكثيرة، أنها لم تتحدث عن الموضوع المثار (طمس الآثار) وإنما دافعت باستماتة واهتياج عن الشيخ الذى أفتى. ولم

أكن يومها أعرفه فعلًا، فسألت عنه تلميذى وزميلى فى العمل "د. محمد يسرى سلامة" فأخبرنى بأنه واحدٌ من أشهر مشايخ السلفية، وله جمهور كبير.. ثم أضاف: لقد حضر معنا الأسبوع الماضى حفل زفاف بمنطقة برج العرب، كان فيه عشرون ألف مدعو من إخواننا السلفيين! سألته:

- وهل هناك أصلًا عشرون ألف سلفى فى الإسكندرية.
- طبعًا يا دكتور، نحن مئات الآلاف ويمكن ملايين. انظر، هذا هو المكتوب فى "جوجل" عن الشيخ محمد حسان.

نظرتُ فوجدتُ عدد الموضوعات عنه، يصل عددها إلى عدة ملايين! وبعد يومين أدلى الشيخ بتصريح صحفى قال فيه إن فتوى طمس الآثار هى فتوى قديمة، وناقِلُوهَا لم يُتْقِنُوا النقل. فقلتُ يوم جلسة الصالون التالية (السابقة بأيام على ثورة يناير ٢٠١١) إن الرجل اعتذر عن فتواه، وإننى أعتذر عن وصف لحيته بالمخيفة، وإن عليه تأكيد نفيه لفكرة طمس الآثار حتى لا يبادر العوامُ الذين سمعوه إلى تدمير القطع الأثرية. وبعد أيام معدودة اهتاجت الأحوال فى مصر، وصار الشيخ ضيفًا دائمًا على موائد المجلس العسكرى، ونجمًا ساطعًا فى القنوات الفضائية، ومُهدئًا نمطيًا لحوادث الاعتداء على الكنائس التى طفرت وتكررت فجأة دون مبرر.. ونسى الناسُ موضوع طمس الآثار.

ولما استقام أمرُ الحكم السياسى للإسلاميين فى مصر، من خلال مجلس الشعب "الهزلي" الذى توالت أيامها عجائبه ومخازيه، ومن خلال النجاح "الإجباري" للإخوان فى انتخابات الرئاسة. ظهرت على استحياءٍ دعوات غريبة

لهدم الآثار المصرية القديمة، وتم بالفعل تحطيم عدة تماثيل فى عدة أماكن فى مصر.. و أيامها سمعتُ رئيسة قسم النحت بجامعة حلوان تقول فى مناقشة علنية لرسالة ماجستير فى الفنون الجميلة، قَدَّمَتْهَا إحدى تلميذاتى، تقول بالحرف: هوَّ الصراحة يعنى، النحت ده حرام.

* * *

كان أول ما فعلته "داعش" فور دخولها العراق، قبل أن تذبح الناس فى الشوارع وتبيع (الإماء) فى الميادين لراغبى النكاح الكثير، الحلال. كان قيامهم بهدم الآثار القديمة فى الموصل وما حولها، بما فيها الآثار ذات الطابع الدينى، مثل شواهد وقبور الأنبياء القدماء. وفى غمرة هذا الهوس الهمجى، وقُبيل الضربة الأمريكية (الجوية) للمعدات العسكرية الأمريكية (الأرضية) صدرت عن الدواعش فتوى بضرورة الزحف إلى مكة لهدم الكعبة، لأنها كانت يوماً ما، بيت أوثان!

وكالعادة، لم يهتم كثيرون بالكلام الداعشى عن الكعبة. إما لأنهم ظنوا أنه "دعاية مضادة" لداعش، أو لأنهم لم يصدقوا صدوره عن جماعة "إسلامية" مهما كانت مُختلة، أو لأنهم لا يعلمون أن أجداد داعش القدماء هدموا الكعبة مراتٍ فى حروبهم، وخلعوا الحجر الأسود من مكانه وأخفوه قرابة عشرين عاماً.. ولما اضطر الدواعش مع الملاعبة الأمريكية، للانسحاب مرحليًا من بعض المواضع العراقية والعودة إلى المواضع السورية التى غنموها، نَسِى الناسُ الكلام الداعشى عن هدم الكعبة وانشغلوا بالأخبار الداعشية الأخرى الأكثر إدهاشًا: سوق الرقيق لنساء الأزيديين وللمسيحيات، وسامة الداعشى الذى

نصَّبَ نفسه خليفةً للمسلمين، الولد المصرى المخبول الذى صار مقاتلًا داعشيًا يثير إعجاب الداعشيات، مبايعة الظواهرى ودعواته بالتوفيق لخليفة المسلمين الداعشى "البغدادي" فى حربه مع الباطل، تهديد داعش لمصر ووعيدها للجيش المصرى وإعلان نيتها قتل الخائن "محمد مرسي" فور دخولهم إلى مصر، اللوائح الإسلامية الداعشية المُنَظِّمَة لأمور حياة المسلمين فى المجتمع الجديد (مثل تغطية أثداء الأبقار كيلا تثير الشهوات) نحر رقاب المئات من أهل القرى من غير المسلمين ومن المسلمين الذين لا يحافظون على الصلاة..إلخ. وبعيدًا عن كل هذا الهوس والهرج الذى لا يكاد يتوقف عند حدٍّ، دعونا ننظر فى مسألةٍ تُعَدُّ من القواعد الأساسية للنزوع الداعشى، هى مسألة طمس الآثار القديمة.. فنقول فى ذلك:

أولًا: الداعشية اسمٌ مؤقت يدل على انفجار النزعة الهمجية والمجاهرة بالعداء لكل الموروثات الإنسانية ذات الطابع الحضارى، لأنها تمثل النقيض التام للاتجاه البدائى "الداعشي" الأصيل، وبالتالى فالحل هو هدمها بالاستعانة بأحد منجزات الحضارة الغربية المعاصرة أعنى بالمتفجرات القوية والأسلحة الفتاكة. لأن جوهر المظاهر الحضارية، الإنسانية، كالتنوع البشرى الخَلَّاق والحرية الفكرية والفن والأدب والمعرفة، هى عند الداعشيين بِدَعٌ لابد من القضاء عليها حتى يعيش الناس بالطريقة الصحيحة(من وجهة نظرهم) حيث لا حدود للذبح والطمس والنكاح المجانى للأسيرات والأسرى.

ثانيًا: طمسُ الآثار هو سِمَة أساسية لدى الجماعات الدينية اللاعبة بعنف فى ميدان السياسة والسلطة الدنيوية. فإلى جانب ما فعلته الدواعش بشمال العراق فور دخولهم هناك، فعل جماعة "أنصار الشريعة" فى ليبيا الشىء نفسه،

فور ظهورهم هناك، فهدموا المزارات القديمة وطمسوا الآثار المسيحية المبكرة (القديس مرقس الرسول، جاء من ليبيا) وطمسوا الأفكار المستنيرة بقتل قائليها حتى لو كانوا من النساء النابهات فى ليبيا. وهذه الأفعال الطامسة، تقترب فى طبيعتها مما فعله أمثالهم (الإسلاميون) فى تونس، وفى الجزائر أيام فوضاها، وفى أفغانستان أيام تدمير تمثالَى "بوذا" فى بلدة باميان، وفى مكة بموسم الحج عام ١٩٧٩ حيث قتل هؤلاء (الإسلاميون) مائتين وخمسين شخصًا من الحجاج وجرحوا ستمائة مات منهم لاحقًا كثيرون، وجعلوا البيت الحرام الموصوف بأنه "مثابة للناس و أمناً" محلاً للفزع المروِّع.. وفى أزمنةٍ سابقة طمس الوهابيون آثار الأولياء بالجزيرة العربية، وطمس القرامطة قُدْسَ الأَقْدَاس الإسلامية وخلعوا الحجر الأسود من جدار الكعبة وقتلوا الحُجَّاجَ يوم عرفة. وطمس المهووسون المسيحيون آثار الإسكندرية ودمَّروا سنة ٣٩١ ميلادية الموسيون والمكتبة الملحقة به (مكتبة الإسكندرية القديمة).. فالطمس، نهجٌ معتاد لكل الجماعات ذات النزعة الداعشية، قديمًا وحديثًا، بصرف النظر عن اختلاف الأزمنة والديانات.

ثالثًا: للطمس أسانيد إسلامية مشبوهة، يستشهد بها كارهو الحضارة. منها أن النبى طَمَسَ الرسومات التى كانت على جدران الكعبة، وتأفف من الآثار النبطية التى بشمال الحجاز (المسماة اليوم: مدائن صالح) وهدم أكبر الكعبات فى جزيرة العرب فور انتهائه من فتح مكة، أعنى كعبة الربة "اللات" فى الطائف.. وفات الداعشيون المستشهدون بهذه الوقائع، أن المسلمين الأوائل "الفاتحين" لم يَقُم أحد منهم بطمس أثرٍ قديم.

ولا يكترث الدواعش بالدعوات القرآنية للنظر فى آثار الأولين، كما فى قول القرآن الكريم: "أَوَلَم يَسِيرُوا فى الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا[١].." وجعلوا معناها متوافقًا مع رغبتهم الهمجية فى الهدم، فقالوا إن مراد الآية هو العبرة من "اندثار" آثار الأقدمين، يعنى من انطماسها!

* * *

ويبقى من بعد ذلك كله سؤال: لماذا يسعى الدواعش على اختلاف أسمائهم وأزمنتهم ودياناتهم، للطمس؟.. والإجابة على ذلك واضحة، لدرجةٍ تفوق تصديق الناس لها. فهى ببساطة.. لأن هدم الآثار القديمة، يُريح كُلَّ مَنْ كان همجيًا.. لأن هذه الآثار تذكره دومًا بأنه همجى، وبأنه لا يستطيع البناء، وبأنه عاجز عن فهم التراث السابق عليه. فيهدمه، ليتخلَّص منه، ويتفرَّغ هو للأمور الحياتية المريحة له، والألذ مذاقًا: القتال، الذبح، النكاح. بعيدًا عن القلق العميق الذى تثيره فى نفسه الشوهاء، شواهدُ الماضى وسجل الحضارة الإنسانية المتمثل فى الآثار الباقية من القرون الخالية.[٢]

---

(١) سورة الروم ، آية : ٩.

(٢) أثناء مراجعة بروفات هذا الكتاب، كان الدواعش منهمكين فى تدمير آثار "تدمر" بسوريا، بعد انسحاب قوات جيش "الأسد" منها، فجأة! وبينما تدور فى العراق حربٌ بين داعش وقوى وطنية متعدِّدة (جيش وطنى، عشائر، قوات البشمركَة الكوردية..) نشرت داعش قبل أيام صورًا وملفات فيديو، لتدميرهم آثار ملوك الأشوريين (قصر الملك سنحريب ٧٠٥-٦١٨ قبل الميلاد) بالموصل شمال العراق.. وهذا الملك، كان وزيرة "أحيقار" هو صاحب الوصايا المعروفة عند المسلمين بوصايا لقمان الحكيم .

الرعب

استعانت الحضاراتُ الإنسانيةُ خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة، بما لا حصر له من أنواع الترقية والتهذيب للطبيعة الإنسانية: الفن، المعرفة، الأخلاق، الدين، التصوف، وغيرها من الوسائل التى تراكمت نتائجها وتجلياتها عبر تعاقب الحضارات، فصارت اليوم تُرَاثًا عامًا للإنسانية تسعى "الداعشية" لطمسه. غير أن هذه النزعات الهمجية الأصيلة فى نفوس البشر، لم يتم اقتلاعها من قاع النفوس (ولن يتم ذلك أبدًا) نظرًا لرسوخها فى المناطق السفلية من النفس الإنسانية، وكل ما استطاعته الحضارةُ هو تغطية هذه النزعات والشهوات البدائية، بقشرةٍ هَشَّةٍ يُعَبَّرُ عنها بمفرداتٍ فضفاضةِ الدلالة مثل: العيب، الحرام، الضمير، الواجب، العاطفة.. وغيرها من القواعد والقيم التى يرتقى بها الإنسانُ عن بقية أنواع الحيوان. ومعظم أنواع الحيوانات، فى واقع الأمر، أرقى بكثير من البشر فى حالتهم البدائية الأولى! فليس من بين الحيوانات نوعٌ يستمتع بالفتك ويقتل من أجل القتل، أو يلتذ نفسيًا بإيذاء أفراد نوعه، أو يحيك المؤامراتَ بِخُبْثٍ ضِدَّ إخوانه لإبادتهم.. الإنسانُ فقط يفعل ذلك، ثم يزعم أنه أرقى الكائنات ومحور الكون ونقطة دائرة الوجود.

وانفلات هذه النزعات الداعشية وانفجارها، كان وما يزال مرتبطًا بالظروف السائدة، بصرف النظر عن المسميات التى نعطيها للوقائع المعروفة التى تَقَصَّفَت فيها القشرة الحضارية الهَشة، فأطلَّ الهولُ المريع وجرى الدمُ أنهارًا وتَمَّ الفتكُ والإبادة ونشرُ الرعب. أعنى الوقائع القديمة والمعاصرة التى من مثل: حروبُ الرب المذكورة باحتفاءٍ عظيم فى الكتاب المقدس.. الاجتياحُ

المغولى الهمجى للحواضر الإنسانية.. المذابحُ المسيحية والإسلامية لإبادة اليهود.. المذابح اليهودية المعاصرة فى أرض الميعاد المزعومة.. مذابح الكاثوليك ضد البروتستانت فى غرب أوروبا.. مذابح رواندا المُرَوِّعَة بين الهوتو والتوتسى.. معسكر "أوشيفتش" النازى لإبادة الشواذ والغجر واليهود والمُعَارِضِيْنَ للنازية. وغير ذلك من تلك الوقائع المشهورة، التى أطلَّ فيها الرعبُ وتمطّى الهولُ.

وهذا النُّكُوصُ والارتداد إلى الحالة الهمجية الأولى، بكل ما فيها من نوازع وشهواتٍ مكبوته فى النفوس، لا يقتصر على الجماعات والجيوش. وإنما هو نزوعٌ فطرى فى النفسِ البشريةِ ذاتها، وهو يظهر بصورة فردية مثلما يتجلَّى فى الصور الجماعية وحروب الإبادة المُمَنْهَجَة. ففى حياة الأفراد، نرى ميل بعض الناس إلى استقطاع وقتٍ مخصوص من حياتهم الحضارية، والحضرية، لإفساح المجال أمام إنعاش الحالة الداعشية الكامنة فى قاع النفوس. وهو ما يظهر فى حرص أفراد الناس على مشاهدة أفلام الرعب المليئة بالفظائع، أو متابعة مباريات المصارعة المريعة، أو الانجذاب لأفلام الفتك والافتراس فى حياة الضوارى البَرِّيَة.. وحتى فى الحالات القصوى من اللقاء الفراشى الحميم بين الرجل والمرأة، حيث يؤدى الانهماك الزائد والرغبات المتوحّشة الدفينة فى قاع النفوس، إلى إحياء مؤقَّت لتلك النوازع البدائية المسماة فى علم النفس المعاصر بالسادية والماسوشية (المازوخية) وإلى الالتذاذ بالإباحية المُفْرِطَة والتهتك المُفرِط. وكلما تزايد الشغف بهذه الأمور غير الاعتيادية، تقصَّفت القشرة الحضارية وانفجرت المشاعر الهمجية الأولى، فتكون الحالة المسماة للحماية منها: الخلل النفسى.

ويظهر هذا "الخلل النفسي" عند التعبئة للحروب وعند احتدامها، وفى غمرة الاهتياج الجنسى المتطرف، وفى لحظة السُّعار المُريع عندما يَشُمُّ الداعشى رائحة الدم فيصير كالضباع الضارية. والعجيب، أن وسائل الإعلام تُصِرُّ على مخادعة البسطاء من الناس ،بقصد أو بدون وعى، حين تُردِّد العبارات الجوفاء البلهاء لتمرير أخبار الفظائع الداعشية الأخيرة، فتقول بألفاظٍ منمقةٍ وخادعةٍ ما هو معتاد من مثل هذه التعبيرات المجانية المُسطَّحة: "ما يفعله الدواعش لا صلة له بالإسلام.. الإسلام برىء مما تفعله داعش.. إلخ". ثم يُرَدِّدُ البسطاءُ من الناس ما ردَّدته وسائل الإعلام على مسامعهم كأنهم الصدى، فيصير هذا الرأى المغلوط متداولًا ومشهورًا، فلا يفكر أحدٌ فى إعادة النظر فيه أو معارضته بأى نوعٍ من التأمل المؤدّى إلى إدراك حقيقةٍ بديهيةٍ هى أن "الداعشية" تعبيرٌ صريحٌ عن الجانب العميق (المعتم) من طبيعة الإنسان، حيث تقبع النزعة الهمجية الموروثة من الأزمنة البدائية، وتبقى مكبوتةً فى نفوس البشر جميعًا،حتى تسنح الفرصةُ المواتية لظهورها الانفجارى فى غيبة مظاهر التحضُّر ينسفها نسفًا.

أما القول الساذج وبالأحرى الزعم العريض بأن الإسلام برىء مما تفعله داعش، ومما فعله الدواعش القدماء والمعاصرون. فهو قولٌ واضحُ البطلان ولا يؤدى بأى حالٍ من الأحوال إلى فهم التجليات الداعشية، وإلا: إن كان الإسلام برىء من أفعالهم التى يقول الطيبون والبلهاء من الناس إنها "تُسِيء إلى الإسلام" فلماذا لم ينتفض المسلمون شرقًا وغربًا ضد أفعال داعش، مثلما انتفضوا قبل أعوامٍ قليلة ضد الواقعة التافهة المسماة "الرسوم المسيئة للرسول". وقد رأينا جميعًا، أيامها، كيف أدَّت هذه الصورة (الرسم الكاريكاتورى) إلى

هياجٍ عارمٍ ومظاهرات صاخبة فى بلاد المسلمين الفقيرة، شرقًا وغربًا، لنصرة نبى الإسلام.. كأن نبى الإسلام أهم من الإسلام ذاته، وكأن الهوس الذى اجتاح البلاد باسم الانتصار للنبى الذى عُرف بإحسانه لمن أساءوا إليه، ليس فى حقيقة أمره إلا اهتياجٌ داعشى كان كامنًا، وكان يبحث عن سببٍ ومبرر مشروع لكى ينفجر العلن.

ولو كانت الأفعال الداعشية ضد الإسلام، فلماذا لم يقم الأزهر الشريف أو الحكومات الوهابية أو مُدَّعو "إحياء" خُرَافَةُ الخلافة الإسلامية، بالرد على الدواعش وأفعالهم المريعة، وأفكارهم الغرائبية، والبيانات العجائبية التى تصدر عنهم كل ساعة، وأفلام الفيديو التى ينشرونها كل حين. فى حين يكتفى حاملوا راية الإسلام والمتكسبين منه، بقولهم على هونٍ: هذا ليس من الإسلام.. هذا ضد ما أمرنا به الدين الحنيف.. الإسلام يدعو إلى التسامح! ومثل ذلك من العبارات المعتادة والتعبيرات المُرَاوِغَة، التى كان أكثرها إدهاشاً للعقول تصريح الأزهر (الشريف) بأنه لا يجوز تكفير الدواعش لأنهم من أهل القبلة.

وفى المقابل من هذه المواقف المائعة، يرفع الدواعش من الشعارات الدينية ما يشير إلى أنهم – ويا للعجب – هم المسلمون الحقيقيون، فهم يرتدون الجلابيب ويُطلقون اللحى ويمسكون بالبنادق الآلية (المعادل المعاصر للسيف) كأن الإسلام هو شكل الملبس وكثافة اللحية والسيف المسلول. ولا يَكُفُّ الدواعش عن "التكبير" وعن ترديد النصوص الإسلامية، سواءً من الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية، بحسب فهمهم السطحى للمتشابهات من آى القرآن ومُشتبهات الدلالة والصحة من الأحاديث الشريفة. فمن ذلك ما ورد فى قوله تعالى بالقرآن الكريم: يَا أَيُّهَا النَّبِي جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِيْنَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِم

(سورة التوبة) يَا أَيُّهَا النَبِى حَرِّضِ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى الْقِتَال (سُورَةُ الأنفال) يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِيْنَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيْكُم غِلْظَة (سورة التوبة).. وهناك كثيرٌ من تلك الآيات القرآنية الداعية إلى تأكيد الدعاوى الداعشية، والمُبَرِّرَة لما يسعى إليه الدواعش من نشرٍ للرعب فى نفوس الآخرين، كأنهم بذلك يُطَبِّقُونَ حُكْمَ الآية القرآنية: سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِيْنَ كَفَرُوا الرُّعْبَ، فَاضرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ، وَاْضرِبُوا مِنهُم كُلَّ بَنَان (سورة الأنفال).

أما النص الثانى فى الإسلام (الحديث الشريف) فسوف يجد فيه الدواعش مرتعاً لما يريدونه من تبرير ، لا سِيَّمَا تلك الأحاديث الصحيحة التى من مثل: نُصِرْتُ بِالرعب مسيرة شهر (رواه البخارى).. يا معشر قريش جئتكم بالذبح (رواه البخارى وابن حِبَّان والبيهقى).. أمرتُ أن أقاتل الناسَ حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله (رواه البخارى ومسلم)

ولن يتسع المقام هنا للرد على احتجاج أصحاب النزعات الداعشية، بهذه الآيات القرآنية والأحاديث "الصحيحة". ولابد هنا من تنبيهٍ ضروريٍّ، وانتباهٍ إلى أنَّ صِفَةَ "الصحيحة" إنما تعنى صحيحة "الإسناد والرواية" وليس بالضرورة صحيحة المحتوى والمتن. وعمومًا، فإن غايتنا هنا ليست القيام بالدور الذى كان يجب أن يقوم به الأزهر وفقهاؤه، بدلًا من قيامهم بإصدار الفتاوى بتحريم "الشات" بين الجنسين! وإنما غايتنا ومرادنا الذى أسهبنا فى التمهيد له رفقًا بالبسطاء من أهلنا، هو التنبيه والإشارة إلى استتار النزعة الهمجية خلف الشعار الدينى، لتبرير العتو ونشر الرعب.. باسم الإله، باسم الرب، باسم الحق المطلق.

لماذا لا يرد حملة لواء الإسلام، على دعاوى الدواعش المعاصرين؟ لأنهم فى واقع الأمر داعشيون. وما الاختلاف بين أولئك وهؤلاء إلا فرقٌ فى الدرجة لا النوع، وما الإسلام عندهم جميعًا إلا شعارٌ سطحى يبرر انفجار النزعة الداعشية فى النفوس أو توق هذه النزعة للانفجار. ولو لم يكن الإسلام – بحسب فهم المُتكسبين منه– هو المبرِّر الكافى لتمرير النوازع الداعشية، لكانت هناك أسبابٌ ومبرراتٌ أخرى دينيةٌ أو غير دينية.. دينيةٌ، كالتعصب للمذهب (السُنِّى أو الشيعى) أو غير دينية، كالميول العِرْقِيَّة والنوازع الثأرية. غير أن المبرر الدينى، يظل هو الأكثر قبولًا لدى غالبية المؤمنين بهذا الدين أو ذاك، وهو الأكثر قدرةً على تفجير وتبرير أعتى النزعات الداعشية.

السطحية

فى أواخر العام ٢٠١٤ أصدر الخليفة الداعشى المزعوم فتوى عجيبة تقضى بإحراق كتب ابن عربى، وتحريم تدريس الفلسفة والتصوف. فما دلالة ذلك؟ ..علينا أولًا أن نلاحظ عدة أمور محورية، إذا أردنا حقًا فهم الظواهر الداعشية على اختلاف أشكالها وأسمائها. ومن تلك الأمور، معنى كلمة "فتوى" فى اللغة والاصطلاح الدينى.

يقول العلامة ابن منظور فى كتابه الشهير (لسان العرب) إن الفتوى هى التحاكم، وهى تبيين المُشْكِل والمُلْتَبِس من الأحكام، وفى آى القرآن.. يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ (سورة النساء).. ونلاحظ هنا أن معنى الفتوى مرتبط بأمرين، الأول هو ترجيح أحد الأحكام على غيره عند وقوع الاشتباه والالتباس بين حُكمين شرعيين، والأمر الآخر أن الفتوى هى إجابة عن سؤال وليست

مبادرة فقهية من شخصٍ مهما كان. وبالتالى لا يجوز لشخص عالم أو جاهل أن يبتكر من تلقاء نفسه أحكامًا شرعية تفصيلية، يسميها (فتاوى) ويسمى نفسه بالتالى (المفتى) لأنه فى هذه الحالة لا يُفتِى، وإنما يُسمِّى فعله هذا اجتهادًا شخصيًا أو اختراعًا شرعيًا أو (استهبالًا) ذاتيًا، لكنه فى كل الأحوال ليس فتوى. لأنه لا يوجد أحلاً سائلٌ له، وليس هناك التباس ليتفضَّل هو باقتراحٍ فقهيٍّ لحل هذا الالتباس .وبالإضافة لذلك، فإن الفتاوى ظَنِّيَةِ الثُّبُوت وليست مُلْزِمَة بأى حالٍ من الأحوال، لا سيما إن كانت هناك آراءٌ تُخَالِفُهَا .ومن هنا حرص رجال الدين على اختتام فتواهم بقولهم: والله أعلم! للإشعار بأن هذه الفتوى أو تلك، ليست هى (اليقين التام) وليست الرأى النهائى المُلْزِم لكل مسلم.

وقد قام القدماء من فقهائنا بتحديد الشروط الواجبة فى الشخص الذى يتصدر للإفتاء، يعنى الشخص الذى يتولى الإجابة عن الأسئلة الشرعية، فكان من أهم هذه الشروط :العلم والمعرفة، الاشتهار بالفضل بين المعاصرين، الإحاطة بأصول الدين وأسرار اللغة، التلقِّى الفقهى من كبار الأساتذة. فأين تلك الشروط الواجبة على (المفتى) من ذلك الشخص الملتحى، الملفوف بالاسوداد، المسمى عند الدواعش وفى وسائل الإعلام المدمرة للعقول: خليفة المسلمين! وما هو السؤال الذى رُفِعَ إليه للتحاكم الشرعى فى موضوع مُشكل (ملتبس)حتى يكون قوله بحرق كتب ابن عربى وتحريم دراسة الفلسفة والتصوف، فتوى.. لا شىء من هذا ولا ذاك، فالرجل لم نعرف له أىَّ جهد علمى أو اجتهادات أو مؤلفات منشورة أو مشاركات علمية فى أى فرعٍ من فروع العلم الشرعى، ولا غير الشرعى. ونحن لا نعرف أن أحدًا سأله عن ابن

عربى (المدفون فى سوريا بسفح جبل قاسيون، فى الحى المسمى منذ قرون باسمه: سيدى محيى الدين) ولا أظن أن أحد أتباعه الدواعش المهووسين يرتقى إلى الدرجة التى تجعله يسأل عن الفلسفة والتصوف، حتى يحق للخليفة المزعوم أن يفتيه ويفيض عليه من علمه الوفير، بالباطل أو بالحق.. وبالتالى، فما صدر عن هذا الخليفة المزعوم ليس فتوى، وإنما هو قرارٌ أو أمرٌ أو اهتبالٌ لفرصة التصدُّر وركوب المنابر، ثم تم إضفاء مسحة الشرعية على كلامه الركيك الهزلى، بتسميته (فتوى) سرعان ما تناقلتها وسائل الإعلام، ونشط أتباعُه فى تنفيذها دون مراجعة.

ولماذا يقرِّر هذا الخليفة المزعوم أو يأمر، بحرق كتب شيخ الصوفية الأكبر والولى الأشهر فى التراث العربى، بل والإنسانى بعامة: الشيخ محيى الدين بن عربى، الحاتمى الطائى، المُتَوَفَّى سنة ٦٣٨هجرية؟ مع أنه من المستبعد أن يكون أحد الدواعش، ناهيك عن خليفتهم، قد قرأ من كتبه أى شىء أصلًا. وإن كان أحدهم قد تجاوز قدره وقرأ مؤلفات ابن عربى فهو غالبًا لم يفهم من الكلام معظمه. لماذا؟ لأن عبارات ابن عربى، رمزية وبالغة الدقة والرهافة، وقد اجتهد كبار العلماء والباحثين والمستشرقين والصوفية أنفسهم فى تفسير ما كتبه ابن عربى وتبيان معانيه الرمزية الدقيقة ودعوته "العميقة" لدين الحب.. "العميقة" هى الكلمة المفتاحية لفهم الأمر، كما سنرى.

إن الدواعش عمومًا، قديمًا وحديثًا، هم أصدقاء العنف و أعداء العمق. وهم لا ينطلقون بعنفهم إلا من أرض الجهل، ولذلك فمن الطبيعى أن يكون عندهم عداء شديد لكل ما هو عميق. ومن هنا فمن المنطقى أن يكون تراث "ابن عربي" ويكون التصوف وتكون الفلسفة، أعداء للداعشية. ومن الطبيعى أن

يسعى هؤلاء وأمثالهم إلى إحراق الكتب، اعتمادًا على (فتوى) خرقاء كتلك التى تطوَّع بها خليفتهم المزعوم.

ومع أن هؤلاء الهوام المسلحين قد سارعوا عقب إصدار خليفتهم لفتواه إلى جمع ما تيسَّر لهم من الكتب وإحراقها علنًا على الفور، فإن ذلك لا يعدو كونه مجرد عبث بائس. فليس بمقدور هؤلاء المهووسين أن يقضوا على تراث (ابن عربى) المنشور شرقًا وغربًا، وحتى لو احتل هؤلاء العالم أجمع وحولوه إلى جحيم من الفتك والذبح والسبى الظالم. فإن "ابن عربي" سيظل دومًا هو الأقوى منهم والأرسخ، لأنه حفر تراثه فى وجدان الإنسانية خلال القرون السبعة الأخيرة، وانشغل به العالم شرقًا وغربًا، وتخصَّص فى دراسته كبار الأساتذة فى العالم.. من الفرنسي" ميشيل شودكيفيتش" إلى اليابانى "ماساتاكا تاكاشيتا"مرورًا بمن لا حصر لهم من أساتذة مرموقين فى معظم أنحاء العالم [1].

هذا عن الشيخ الأكبر "ابن عربي" وحده. فما بالك ببقية الصوفية الآخرين من أمثال مولانا جلال الدين الرومى والإمام عبدالقادر الجيلانى والأمير عبدالقادر الجزائرى، وغيرهم ممن عاشوا فى الشام والعراق؟ وما بالك بالتراث الفلسفى العظيم الممتد من" طاليس" إلى الفلاسفة المعاصرين، الذين قدَّموا للبشرية أرقى أشكال الفكر الإنسانى؟.. هل جهلة (داعش) أو غيرهم من المتخلِّفين، بمقدورهم القضاء على هذا التراث العظيم؟ لا والله، فما هم إلا ظاهرة إجرامية مؤقتة الظهور ومحتومة الاختفاء، مثلما اختفى أمثالهم وأشباههم من قبل، على اختلاف أسمائهم وسيذهب هذا الزَّبَدُ جُفاءً، ويمكث فى الأرض ما به ينتفع الناسُ.

---

(١) وقد التقيتُ بالأستاذين المذكورين، وبغيرهم من المتخصصين فى الدراسات الصوفية وتراث ابن عربى.. وكانوا دومًا يؤكدون أن صيغة " الإسلام " التى يمثلها ابن عربى، هى الصيغة الوحيدة التى يمكن أن يتقبل بها العالم المعاصر، الإسلام والمسلمين.

ولأن الدواعش وأمثالهم القدامى والمعاصرين سطحيون، ولا يفهمون من الكلام إلا ما كان سطحيًا مثلهم. فسوف يقولون إن تراث " ابن عربي" والصوفية والفلاسفة يستحق الإحراق، لأن (ابن تيمية) الذى يتاجر به الدواعش دومًا على اختلاف أطيافهم وأسمائهم، كان يعادى "ابن عربي" ويرفض الصوفية والفلاسفة.

ولن ينتبه هؤلاء الجاهلون إلى أن ابن تيمية لم يقل بحرق الكتب، وإلى أنه قال بوضوح أن " ابن عربي" هو أقرب صوفية عصره إلى الإسلام، وإلى أنه امتدح الصوفية فى رسالةٍ له بعنوان "الصوفية والفقراء إلى الله" وأنه شرح كتاب الصوفى الكبير عبدالقادر الجيلانى: فتوح الغيب.. ولو عرف الدواعش ذلك، لانقلبوا من فورهم على" ابن تيمية " وقرَّروا حرق كتبه هو الآخر، لأن موقفه هذا فيه'عُمْق لا طاقة لهم به ولا احتمال، لأنهم أهل السطحية و السبهللة و الاستهبال (بالمعنى الفصيح للكلمة الأخيرة، أى: اقتناص الفرص).

ومع أن "الطمس" و "الذبح" و "الرعب" من الأصول والقواعد التى تقوم عليها النزعة الداعشية، ومنها أيضًا "كراهية المرأة" و"الاقتداء باليهود"، إلا أن (السطحية) تظل هى أهم الأسس والقواعد الداعشية، لأنها الملمح المشترك بين هذه الجماعات، قديمًا وحديثًا، وهى العنصر المهيمن على الأصول الداعشية الأخرى. لأن (الطمس) المتمثل فى هدم الآثار وحرق التراث وتدمير الشواهد والشواهق التليدة، هو عمل سطحى يستطيع القيام بها كلُّ التوافه من جهلة الناس. وكذلك الحال فى (الذبح) الذى يتباهى به الدواعش، كى يروِّعوا بأفعالهم الهمجية ضعاف القلوب والقواعد من النساء، ولا يتورَّعون عن الزعم بأن ذبح الآخرين هو فرضٌ على كل مسلم. فهو عملٌ سطحىٌ قامت بمثله سابقًا، الزوجات المصريات المقهورات من أزواجهن،حين انعدمت أمامهن فرص

الخَلَاص منهم بالمعروف، قبل صدور قانون الخلع. فقامت زوجاتهم ليس فقط بذبحهم، وإنما بتقطيع جثثهم وتعبئتها فى (أكياس البلاستيك) حسبما يعرف جميع الناس فى مصر، ثم جعلوها بعد الصدمة الأولى مُزحَةً يتندَّر بها اللاهون فى أحاديثهم المازحة.. فما الجديد الذى يفعله الدواعش، ويظنون أنه سيحقِّق لهم المراد من الحديث النبوى: نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر.

مهما ذبح الدواعش من مسلمى السُّنة وغير السُّنة، ومن غير المسلمين، فإنهم لم يصلوا إلى تلك الوحشية والعُتُو الجنونى الذى قامت به النسوة المقهورات اللواتى قطَّعن أزواجهن أجزاءً.. والذبح والنحر اللذان هما من عمل الجزارين(اللحَّامين) ليسا من الأعمال الخارقة المهولة كما يظن الدواعش، فقد فعل مثل ذلك كثيرون: النسوة اليائسات، والمختلُّون نفسيًا، والمهووسون من الجنود عند احتدام الحروب. وكل الذين انحطُّوا عن مرتبة الحيوانات.

ولأن السطحية ملمح أساسى للدواعش وللجماعات الدينية العنيفة عمومًا، لم نشهد خلال التاريخ الطويل للديانات، أية أعمال إنسانية مجيدة قام بها هؤلاء المنحط سلوكهم عن درجة الحيوان الذى لم يدرك أن سلب الحياة سهل، وأما الصعب فهو الحفاظ عليها.. هدم البنيان سهل، الصعبُ إقامته.. الاعتداء على النساء سهل، الصعب احترام الإنسان فيهن! إن الأعمال العظيمة التى تتراكم فيتشكل منها تراث الإنسانية، تحتاج معرفة وعمقًا وصبرًا طويلًا، وكثيرًا من الدأب والمثابرة. بينما النهج الداعشى يبدأ وينتهى، بما هو سطحىٌ، وسهل.

* * *

النهج الداعشى العام يبدأ بخطوة أولى هى الكراهية، التى هى أسهل وأبسط وأكثر سطحيةً، من الحب. ثم يستمر بخطوة تالية هى البحث عن تمويل ومصدر تسليح، ليس بالاجتهاد وبذل المجهود، وإنما بالسلب والاستيلاء على ما يملكه الآخرون. ثم تتلو ذلك خطوة التنفيس عن الحقد الدفين وإطلاق المكبوت فى قاع النفوس المُعْتِمَة، فينفجر بالهدم أو المجازر بدلًا من جهاد النفس والتفهم والإحسان للآخرين، وغير ذلك من الأفعال الإنسانية النبيلة، التى تحتاج مقاومة عميقة للمشاعر السلبية، وهو الأمر الذى لا يقدر عليه الضعفاء من الناس والسطحيون منهم.

إن الأفعال المُرِيْعَة التى تقوم بها داعش وشبيهاتها من الجماعات البشرية المُنْحَطَّة، على بشاعتها المُعَاصِرَة، لم تصل بعد إلى الدرجة العالية من الشناعة والانحطاط والهمجية التى عرُفناها فى أمثالهم القدماء والمُحْدَثِين. فهم لم يقدروا بعد على قتل الناس فى موسم الحج فى مكة، مثلما فعل المُسَلَّحُونَ الذين اقتحموا الحرم المَكِّى. و الدواعش المعاصرون لم يذبحوا الناس على جبل عرفة ويخلعوا الحجر الأسود من مكانه، مثلما فعل أسلافهم (القرامطة) قبل أكثر من ألف سنة. ولم يقتلوا ثمانمائة ألف شخص مثلما فعل المغول عند اقتحام بغداد سنة ٦٥٦ هجرية، ومثلما فعل الكاثوليك مع البروتستانت فى غرب أوروبا.

ونقول ختاماً: إن الدواعش مهما هلَّل لهم الإعلام المعاصر، التافه، تافهون. ومهما تَحَدَّثَ عنهم المُسَطَّحُونَ من المُحَلِّلِيْنَ، سطحيون. ومهما استعملتهم النُظُمُ العربية الحاكمة لإخافة الشعوب الجاهلة، جاهلون.. ومهما طال أمد بشاعتهم المعاصرة، زائلون.

بفجورٍ مريعٍ وعلى مرأى ومسمع من العالم أجمع، وجَّهت (داعش) ضربةً قويةً لصورة الدين الإسلامى فى الأذهان، شرقًا وغربًا .فكان ما فعلته" داعش" وأخواتها مؤخَّرًا فى سوريا والعراق وغيرهما من البلدان العربية المنكوبة بهم، هو أقوى الضربات الصادمة التى تلقاها (الإسلام) عبر تاريخه الطويل. إذ هى أبشع صورةٍ رُسمت للمسلمين، وانتشرت إعلامياً، خلال تاريخهم الممتد خمسة عشر قرنًا من الزمان ..صحيحٌ أن الدواعش القدماء والمحدثين أفسدوا كثيرًا فى الأرض باسم السماء، وارتكبوا سابقًا من الشنائع والفظائع ما يشابه أفعال الدواعش المعاصرين، ويزيد، إلا أن الواقع المعاصر اهتم بما جرى من جماعة (داعش) عند دخولها إلى العراق، بسبب السُّعار الإعلامى المعطوب الذى تسارع لنشر الشنائع الداعشية الأخيرة على أوسع نطاق، عربيًا وعالميًا، عارضًا التقارير المصورة بالغة البشاعة والفيديوهات الدموية المقززة التى اقتحمت بيوت الناس وقصفت قلوبهم بمشاهد حَزِّ الأعناق وتقطيع الأصابع والأطراف. مع الاعتذار عن إذاعتها تليفزيونيًا بالعبارة السمجة (السخيفة) المعتادة : نعتذر عن بث هذا التقرير الذى يحتوى على مشاهد بشعة، ننصح بعدم رؤية الأطفال لها!

عجيبٌ أمرهم. وماذا لو كان هؤلاء الأطفال يجلسون فى بيوتهم وحدهم؟ ولماذا أصلًا، صار هؤلاء الإعلاميون يسعون لترويع عموم الناس، لا سيما الآمنين فى منازلهم، ثم يعتذرون؟ وألم يسمع هؤلاء الإعلاميون المعتذرون قول القدماء :إياك وما يُعتَذَرُ عنه..

وقد توالت سلسلة الاعتذارات، وقال القائمون على قنوات التليفزيون الرخوة والجرائد اليابسة كالجريد، إنهم صمتوا عن الفظائع الداعشية شهورًا، لأنهم ما كانوا يعرفون ما يجرى فى سوريا، لصعوبة تغطية الأحداث التى كانت تجرى هناك .ثم تداركوا الأمر فصاروا يبالغون فى بثِّ البلايا الداعشية، من بعد دخول هذه الجماعة إلى العراق، بهدف التنبيه إلى هذا الخطر المُرَوِّع. هذا زعمهم. وربما لم يعلم هؤلاء الإعلاميون أنهم شاركوا فى اكتمال هذه المأساة، وكانوا فى واقع الأمر يخدمون الأهداف الداعشية بالسكوت عنها فى بداية الأمر، حتى تتكامل قوى الدواعش الباطشة بالمعاونة والدعم الخارجى: القطرى، التركى، الأمريكي [1] (وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُم، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) فلما أطلّ الهَوْلُ، بالغ الإعلام العربى والعالمى فى إذاعة ونشر المروِّعات الداعشية التى تحقِّق أهدافًا رخيصةً للدواعش، وللمُستترين من خلفهم .أهدافًا منها النُّصرة عن بُعد بإثارة الرعب، ومنها تضخيم قوتهم بالاستعلاء على الجميع وترويع الأباعد عنهم والقريبين منهم، ومنها إعلان بلاياهم المؤدية إلى تحطيم جميع أشكال الحضارة الإنسانية باسم استعادة مجد الإسلام بإحياء الخلافة.

وقد ساد الاعتقادُ فى الذهنية العامة، العربية والإسلامية، بأن "الحاكم" هو ظِلُّ الله فى الأرض، وتم دعم هذا الاعتقاد الوهمى بما لا حصر له من شواهد النصوص، خصوصًا الأحاديث النبوية. بحيث لم يعد بإمكان أحد الشكُّ أو التشكيكُ فى هذه المسألة، وإلا واجهته التهمة المشهورة المعبَّر عنها بقولهم: إنكار ما هو

---

(١) نُشر هذا الكلام بنصّه هذا، بجريدة " الوطن" يوم ١٧ سبتمبر ٢٠١٤ ولم يتقبّله كثير من القراء، كالمعتاد، إلا بعد مرور شهورٍ مريرة.

معلوم من الدين بالضرورة! ومن هنا صار من الممكن عندهم الشكُّ فى المنطق، وفى وقائع التاريخ، وفى فلسفة الحضارات. كى لا يشكَّ أحدٌ أو يجرؤ على الشكِّ فى أن الحاكم ظِلّ الإله فى الأرض! لأن هذا فى زعمهم (معلوم من الدين بالضرورة) وبالتالى يصير علينا أن نتقبّل، ونحن صاغرون بلا حولٍ ولا قوةٍ، أن حُكامًا مسلمين مثل يزيد بن معاوية (الفاجر) وعبدالرحمن الداخل (السفّاح) وأبى العباس (السفّاح) وفرج بن برقوق (الفاجر) وكافور الإخشيدى (الخصى) وغيرهم من أراذل الناس الذين حكموا الناس، كانوا جميعًا ظلالًا لله فى الأرض.

وقد سخر الشاعر محمود درويش، من هذه التوهُّمات بأسلوبٍ مستترٍ فى قصيدته الملحمية الطافحة بالسخرية الهامسة، أعنى القصيدة البديعة التى جعل عنوانها "مديح الظلّ العالي" ولحسن حظه، مات قبل أن ينتبه واحدٌ من هؤلاء المتسلّطين على الناس بالنصوص، إلى أن الشاعر كان يسخر سخريةً عميقة من هذا الاعتقاد الوهمى القائل بأن الحاكم هو ظل الإله فى الأرض. وهكذا نفد الشاعرُ و نفد عمره، وبقينا نحن أحياءً حتى رأينا هؤلاء الدواعش يزعمون إقامة الشريعة، بتنصيب (ظلٍّ) للإله على الأرض المحروقة، هو المدعو :أبوبكر البغدادى، خليفة المسلمين.

والدواعش جميعهم، قديمًا وحديثًا، يتاجرون بهذا الوهم المسمى"خلافة" ويطرحونه على عموم المسلمين، كأنه شرط من شروط الإسلام ومبدأٌ أساسىٌّ من مبادئه. مع أن الخلافة مجرد تسمية لنظام حُكم سياسى تصادف أن استعمله المسلمون الأوائل، حين أطلقوا صفة (الخليفة) على أول حاكمٍ لهم عقب وفاة الرسول، فحظى بالاسم (أبوبكر الصديق) من أجل دعم وتأكيد

مكانته السياسية ببيان صلته بالنبى، وتبريرًا لولايته للمسلمين لفضّ المنازعة على السُلطة السياسية بين المهاجرين والأنصار، انطلاقًا من أنه خَلَفَ النبى فى الصلاة بالناس، فلا مانع من أن يخلفه فى الحكم.. ولهذا وصفوه بأنه خليفة رسول الله، بالمعنيين الدينى والدنيوى، فلما تولّى من بعد أبى بكر بن أبى قحافة (الصدّيق) وعمر بن الخطاب، الفاروق، صار اسمه: أمير المؤمنين، خليفة خليفة رسول الله.. ومع تتابع الحكام الذين تولّوا الأمر بعد الشيخين (أبى بكرٍ وعمر) وأخذوا زمام المسلمين بالحرب والمكيدة فى معظم الأحوال، لم يكن من الممكن أن تمتد صفة (خليفة خليفة خليفة رسول الله) إلى ما لا نهايةً، فما كان منهم إلا أن أسقطوا كلمة (رسول الله) من صفة الحاكم، وجعلوا مكانَهَا كلمة (المسلمين) فصار الحاكم الإسلامى يسمى اصطلاحًا: خليفة المسلمين. وصار نظام الحكم السياسى يسمى" الخلافة" تمييزًا له عن أنظمة الحكم السارية آنذاك تحت أسماء أخرى: الإمبراطور البيزنطى،' الشاه الفارسى، النجاشى الحبشى، الخليفة الإسلامى.. هى إذن ليست أكثر من تسمية تم استعمالها أول الأمر للدعم وفض الاختلاف، ثم صارت اصطلاحًا يميّز نظام الحكم الإسلامى فى العصور المبكّرة. لا أكثر ولا أقل. لكن الأمر صار، فى زماننا القديم والمعاصر تجاريًا، يستعمله ويتكسّب به كلُّ مَنْ أراد الوصول للسلطة باسم الإسلام، وامتلاك الدنيا باسم الدين .وهو الأمر الذى ظهر حتى اشتهر على يد كثيرين من أهل السلطة السياسية والساعين إليها، من أمثال الخوارج و القرامطة و الأمويون فى الأندلس و الفاطميون فى مصر و المماليك فى الشام ومصر و العثمانيون فى الأناضول وما حولها و الوهابيون فى قلب الصحراء. وغيرهم ممن وصلوا للسلطة، أو فشل سعيهم للإمساك بها. فبدا الأمرُ للبسطاء من المسلمين (العوام) وللعلماء أصحاب الأغراض، كما لو

كانت الخلافة شرطًا من شروط الإسلام لا يجوز الشكُّ فيه، وإلا صار هذا المتشكّك مُنكِرًا لما هو معلومٌ من الدين بالضرورة ..وعلى هذا النحو المغلوط، اكتوى الشيخ على عبد الرزاق بنار معاصريه حين أنكر شرط الخلافة، ونشر رأيه هذا فى كتابه الشهير: الإسلام وأصول الحكم.

وعلى هذا النحو المغلوط البائس، سارع الدواعش المعاصرون بإعلان رجلهم المجهول "أبوبكر البغدادى" خليفةً للمسلمين، من دون أن يبايعه أحدٌ غيرهم. وهو الفعل الذى يعنى ضمنًا، عند العوام والمعتوهين، عدة أمورٍ متسلسلةٍ يتبع بعضها بعضًا، هى على الترتيب: الدواعش يطبقون الشريعة ويقيمون الحكم الإسلامى.. أن الذى لا يدين بالطاعة للخليفة الداعشى ليس مسلمًا، مهما أعلن الشهادة وأدى الفرائض وأقام الشعائر، لأنه شخص جاهلى (حلال الدم والمال والعِرض) اعتمادًا على حديث منسوب للنبى يقول فيه: مَنْ مات وليس فى عنقه بيعة، مات ميتةً جاهلية! .. أن الشخص الذى يقاوم الدواعش أو يعارضهم أو يعترض على الفتاوى الهزلية التى يفجؤونا بها كل حين خليفتهم المزعوم، هو شخصٌ يحارب الإسلام ورسوله، ومثل هذا الشخص جزاءه عندهم بطبيعة الحال معروفٌ ومعلومٌ من الدين بالضرورة، وفيه (نصُّ) الآية القرآنية الواردة فى سورة المائدة ولا يَصِحّ معها الاجتهاد، لأنه لا اجتهاد فيما ورد فيه نصٌّ! تقول الآية: إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ(سورة المائدة).. و هو ما تفعله داعش باعتباره امتثالًا لأمر الله! وتطبيقًا لشريعته الإسلامية السمحاء !وتنفيذًا لما ورد فى كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!

واستنادًا إلى تلك الأغاليط المتتالية، يَفتِكُ الدواعشُ بأى شخصٍ لا يعترف بخلافة هذا الخليفة المزعوم أنه ظلُّ الله على الأرض. والذى لا يبايعه يكون عندهم "جاهلى" وبالتالى فهو حلال الدم والعِرض والمال، مهما كان هذا "الجاهلي" مقيمًا لأركان الإسلام. وبهذه الحجة الشرعية، قتل الدواعش أشقاءهم الدواعش الذين اختاروا لأنفسهم اسم (جبهة النُّصرة) مع أنهم مسلمون، وسُنّة، وسوريون فى معظمهم، ومعظمهم دواعش ولكن بدرجة أقلّ همجية.. وقتلوا الأكراد مع أنهم مسلمون منذ أكثر من ألف سنة، وعلى المذهب السُّنّى الذى يتمذهب به الدواعش.. وتوعَّدوا بالقتل بقية المسلمين الذين لم يُبايعوا بعدُ خليفتهم المزعوم، ومن بين هؤلاء الموعودين بالقتل والصلب وتقطيع أيديهم وأرجلهم: أعضاء تنظيم القاعدة الذين يعتبرهم الدواعش خوارج، والإخوان المسلمون ورئيسهم السابق الذى يعتبره الدواعش خائنًا، وخادم الحرمين الشريفين الذى يخدم "الكعبة" التى يريد الدواعش هدمها لأنها كانت فى الأصل بيتًا للأوثان.

واستنادًا لما سبق، ولأن دولة الإسلام قامت فعلًا فى وهم الدواعش حين تم تنصيب الخليفة المسلم أبوبكر البغدادى، فلا مانع من الانهماك فى القتل باسم الإله لإشباع النزعات البدائية الموروثة من الأزمنة الهمجية المبكرة، ومن هنا قتل الدواعش الجميع. قتلوا العلويين الذين يعلنون أنهم مسلمون شيعة، مع أنهم (نُصيرية) منشقُّون منذ قرون عن الإسلام. وقتلوا المسيحيين لأنهم مسيحيون، والأيزيديين لأنهم أيزيديون، والأجانب لأنهم أجانب.. ولو قدر الدواعش بعد حينٍ على (الدروز) لقتلوهم لأنهم دروز، ولو غلبوا رجال حزب

الله الشيعى يومًا لفتكوا بهم لأنهم شيعة، ولو تمكنوا من كل الناس لفعلوا بهم كل ما فعلوه مع كل الناس باسم الإسلام، والخلافة.

* * *

يسعى الدواعش (القدماء والمعاصرون) للقتل ثم يوجدون المبرِّر الدينى لما يريدون. وهم لا يريدون إلا :القتل للتنفيس عن الغريزة الهمجية الكامنة فى قاع النفوس.. القتل للاستيلاء على الأموال والأرض، التى كان يملكها المقتولون قبل قتلهم.. القتل لجلب السبايا من النساء، للتصبُّر حينًا بنكاحهم إلى حين الالتحاق بالجنة ونكاح الحور العين والغلمان المشرقين كاللؤلؤ المكنون.. فى القتل، كل الأمانى الداعشية التى لا يمكن تحقيقها وإضفاء المشروعية عليها، إلا من خلال إحياء وهم (الخلافة) والبهرجة على العوام بأنها شرطٌ من شروط الإسلام. ومع أن لفظ (الخليفة) هو من حيث اللغة كلمة مؤنثة إلا أن التصورات المرتبطة بمفهوم الخلافة تتضمن كلها إهانة المرأة والحَطُّ من شأنها. فلا تصح ابتداءً خلافة النساء أو إمامتهنّ، بل إنَّ أول شروط (الخليفة) عند المُصَدِّقِيْنَ به وعند عوامِّ الناس وجُهّالهم، هو أن يكون هذا الخليفة بالضرورة رجلًا. وقد ورد فى النصّ (ولا اجتهاد فيما ورد فيه نصّ) قول النبى:لا يفلح قومٌ ملكت زمامهم امرأة.. وقد رأينا كيف أُهين أهل مصر عندما ملكت زمامهم وتولَّت أمرهم امرأة "شجرة الدر" فعايرهم العراقيون بقولهم الساخر: إذا كانت مصر قد خلت من الرجال فأخبرونا لنبعث لكم رجلًا من عندنا ليتولى عندكم الحكم.. فاضطرت شجرة الدر للدخول فى (عصمة) رجل، وجرى الدم من بعد ذلك أنهارًا.

كما ارتبطت الخلافة دومًا باستباحة النساء، سواءً كانت المرأة زوجةً من أربع زوجات شرعيات أو "أم ولد"[١] أو واحدة من النساء اللواتى يُعرفن باسم ملك يمين. أى يمين الرجل. و هاتيك النسوة المملوكات، لا حصر لعددهنَّ شرعًا.. وقد تُسْتَبَاحُ النساءُ فى إطار الخلافة الداعشية، عن طريق الإهداء من أخٍ داعشى أراد أن يُجامل أخاه الداعشى الآخر ويذيقه من العسل المستطاب، الحلال على زعمهم، المتاح لهم من بعد طول حرمانهم، المثير مجانًا للغرائز البدائية.

لوثة الأنوثة

ترتبط خرافةُ الخلافة بمجموعةٍ من التصورات الخاصة، الخسيسة، عن النساء. ولذلك تكون «المرأة» عادةً هى الضحية الأكثر بؤسًا والأشدُّ معاناةً، عقب أىِّ نجاحٍ مؤقّتٍ لتلك الفورات والانفجارات الداعشية الناشرة للتعاسة، حسبما يظهر لنا من الخبرات التاريخية والوقائع المعاصرة. كما يتصل وهمُ «الخلافة» الخلافى، بتصوّرات أخصّ وأخسّ عن مفهوم «الأنوثة» باعتبارها النقيض التام للنزعة الداعشية، بمعناها العام. أعنى بمعناها الدال على النزعة الهمجية الهائجة، المترعة بالرغبة فى الفتك، المتوسّلة للسلطة بالعنف المقدّس المسلح، المبررة لشهوة القتل بأن تلك هى إرادة السماء!

---

(١) هى "الأَمَة" التى أنجبت لسيدها ولدًا، فلم يعد من حقه بيعها أو معاملتها بمعاملة المالك للعبيد.

وعندما ارتاع العالمُ شرقًا وغربًا، من هول المشاهد التى نشرتها جماعةُ داعش للنسوة اللواتى سيقت زُرافات منهنّ كالنعاج، بعد ذبح رجالهن، ليبعهنّ علنًا بأبخس ثمن فى أسواق الرقيق الداعشى. لم ينتبه كثيرٌ من الناس إلى أن الدواعش أنفسهم، كانوا هم الذين قاموا بالتقاط الصور وبتصوير هذه الأفلام (الفيديوهات) التى تُظهر أسراهم من النساء (الإماء) المتسلسلات البائسات، المنتقبات عنوةً، وهنَّ فى الطريق إلى البيع فى العَرَصَات والميادين الداعشية. والعجيب، حسبما ظهر من الصور والفيديوهات هو أن الدواعش رأوا فى مخازيهم هذه، فخرًا يستوجب النشر والانتشار على أوسع نطاق. لتأكيد أن دولة الإسلام فى العراق والشام (داعش) تقوم فعلًا بإحياء المجد التليد للإسلام. لذلك بدا أعضاءُ الجماعة بأسلحتهم فى تلك «المواد الإعلامية» المنشورة على أوسع نطاق، وهُم سعداء معتزّون بالخزى الذى يفعلون. وفى حقيقة الحال، فإنه من دلائل الجهل الداعشى «الفادح» أنهم يتوهّمون أن أفعالهم هذه دليلٌ على إحيائهم للتقاليد الإسلامية. وربما لا يعلم هؤلاء الجهّالُ، أن تجارة الرقيق «الأبيض» طيلة قرونٍ طوالٍ من الزمان المرّ، لم تكن مرتبطة بالإسلام تحديدًا وإنما كانت معروفةً من قبل ظهوره بقرونٍ طوالٍ، منذ الزمن المسمى عند العوام «الجاهلية». فهى سمةٌ معتادةٌ فى الأزمنة السحيقة للعرب، العاربة والمستعربة، وقدامى اليونان الرومان والروم والفرس والهندوس. وهى تقاليدُ عتيقة لا ترتبط بدينٍ معين أو أقوامٍ بعينهم، وإنما ظلت تسودُ وتسوِّدُ الفترات القديمة كلها، أعنى تلك الفترات التى تحوّلت فيها الحضارةُ الإنسانيةُ من مراحل «التأسيس الأول» الذى كانت فيه الأنوثة مقدّسة، إلى مرحلة التوسُّع المسلّح لإنشاء الممالك الممتدة جغرافيًا فى الأرض، باسم التفوق العرقى لجماعة معينة، أو باسم الإله «الذكر» الذى أزاح تدريجيًا الألوهة المؤنثة من

فوق عرشها السماوى، بعد آلاف السنين من عبادة الإلهات العظيمات: نحرساج السومرية، عشتار البابلية، إنانّا الآشورية، أثينا اليونانية. وإيزيس المصرية التى عُبدت فى مصر وفى معظم الأنحاء القديمة، بأسماءٍ متعدّدة. وعند ذِكر الربّة المصرية «إسّت» المنطوقة باللفظ اليونانى المشهور اليوم على الألسنة «إيزيس» تجبُ الإشارةُ إلى سُهُوكة الإعلام (الغربى والعربى) الذى راح مؤخّرًا يُمهّد بانهماكٍ شديدٍ للنوايا الأمريكية والأوروبية، والتركية الساعية إلى التدخل العسكرى فى منطقة «الهلال الخصيب» الذى صار بالأسلحة الأمريكية والدعم التركى هلالًا مُجدبًا. إذ أخذ هذا الإعلامُ الغربى وتابعُه العربى، من بعد الصمت الطويل، ينشر بكثافةٍ بلايا وأخبار جماعة «داعش» مستعملًا اسمها المختصر «إيزيس» أو بحسب الحروف اللاتينية ISIS على اعتبار أن هذه الجماعة تسمى نفسها، أو بالأحرى اقترح عليها الغربُ أن تسمى نفسها، بالإنجليزية Islamic State in Iraq & Syria..

وكان يمكن تلافى هذا التطابق اللفظى بين اسم الربة المصرية التى علّمت الإنسانية الرُّقى، واسم هذه الجماعة الهمجية التى عادت بالبشرية إلى زمن ما قبل الحضارات. باستعمال مختصر لفظى، أكثر مناسبةً للمسمى المكذوب الذى اختارته هذه الجماعة لنفسها. فيكون مختصر اسمهم مثلًا SISI على اعتبار الأحرف الأولى من ترجمة اسمهم الكامل إلى الإنجليزية StatE of Islam in Syria and Iraq فيصير اسم هؤلاء الدواعش أدقَّ من حيث جريانه على النسق المستعمل فى المسميات الغربية المعاصرة، ومقتربًا من واقع الدواعش الحاليين الذين بدأوا بالانتشار فى سوريا قبل العراق، ومُبتعدًا عن التطابق مع اسم الربة القديمة المجلّلة بالبهاء.. ومن اللافت للنظر، فيما يتعلق بهذه النقطة الدقيقة، أن المصريين لم يُحرّكوا ساكنًا بسبب هذه

السهوكة والزهومة الإعلامية (السُّهُوكة هى رائحة السمك العفن، والزُّهُومة رائحة اللحم الفاسد) بينما تقود امرأةٌ أمريكية حاليًا حملةً واسعةً لدفع وسائل الإعلام فى بلادها إلى تغيير هذا المختصر اللفظى «ISIS» لأن هذه المرأة سُميت كما سُميت أمها «إيزيس» تيمنًا باسم الربّة المصرية القديمة. ومع أهمية هذه النقطة «اللفظية» السابقة ودلالتها المعنوية، ومع خطورة الموقف الإعلامى المريب من الحالة الداعشية (الصمت التام حتى تستكمل الجماعة قوتها، ثم الصخب العام بنشر فظائعها تمهيدًا لضربها وتحويل أصحابها إلى عصابات مسلحة، مثلما حدث سابقًا مع جماعات مماثلة كالقاعدة وطالبان والعرب الأفغان).. مع ذلك، فإن الأكثر أهميةً وخطورةً هو ضرورة الاقتراب من عمق الحالة الداعشية، لفهم موقف هؤلاء الدواعش وأشقائهم المختلفين عنهم فى الدرجة وليس فى النوع، من المرأة، وهو ما سوف يؤدى بنا إلى اكتشاف «لوثة الأنوثة» فى النفوس الداعشية على تفاوت أطيافها فى السُّخف والتكثيف. إذ إن هذه «اللوثة» من أهم الأسس والقواعد التى تقوم عليها اليوم هذه النزعة الداعشية عمومًا، سواء فى العراق وسوريا أو فى غيرهما، وكانت تقوم عليها فى الزمن القديم أيضًا، فحيثما ووقتما ظهر الدواعش ظهرت معهم لوثةُ الأنوثة. ولضبط الدلالات، خشية الغرق فى فوضى المفاهيم، فإن مقصودى بهذا المصطلح الجديد «لوثة الأنوثة» هو النظرةُ الذكوريةُ المتدنيةُ، والمتدينةُ غالبًا، تجاه النساء. لا سيما فى ظلّ القوة البدنية المسلّحة للرجل، المنتصر، حيث لا تمثّل «المرأة» فى نظره تمام واكتمال مفهوم «الإنسانية» الذى لا يتمّ ولا يكتمل، ولا يتطوّر، إلا بتناغم الأنوثة والذكورة. ولكن، ولأن الدواعش عمومًا (القدماء منهم والمعاصرين) لا يعترفون أصلًا بمفهوم «الإنسانية» ولا يعتدّون به، بل هم يكرهون أساسًا هذه النزعة الإنسانية لأنها النقيض التلقائى للنزعة

الداعشية، ولذلك تراهم يُعادون ويعتدون على، كل الأسس التى يقوم عليها مفهوم الإنسانية، وما يرتبط به من معانٍ سامية. من مثل: التقدير العميق للفنون والآداب والآثار القديمة.. الاحتفاء بالقيم العليا (الحق، الخير، الجمال).. احترام التجارب الروحية والتنوع العقائدى عند عموم الناس.. إعلاء مكانة النساء. وبعيدًا عن تلك القواعد الراقية والأسس التى يقوم عليها مفهوم الإنسانية، وفى إطار النظرة الداعشية المتخلّفة عن المسار الحضارى العام، يُعادى الدواعش «الأنوثة» ويعتدون عليها. لأنها تمثّل فى أذهانهم المليئة بالأمراض النفسية، المعادل لمعنى الإنسانية والنقيض المضادّ لهم، وغير المتكامل معهم. لذلك تراهم يمدحون الرجل بأنه «رجل» أو بأنه مذكّر حيوان «أسد» بينما يشتمون الشخص بأنه «امرأة» ويقدحون فى المرأة بأنها «أنثى الأسد» ويرون النساء من جملة الغنائم المسلوبة عند نجاح الاعتداء المسلّح، باسم الرب. فالمرأة المنهوبة، من زاوية النظر الداعشية، جائزةٌ تساق إليه إذا انتصر فى الدنيا. وفى الآخرة هى واحدة من جملة المزايا الممنوحة، له على سبيل الثواب الجزيل بغير حساب.. ومن هنا قيل فى إحدى النكات، والنكتة هى الدقيقُ من القول إن امرأةً سألت زوجها: أنتم الرجال لكم فى الجنة الحور العين الأجمل من كل نساء الأرض، لتكتمل مُتعتكم، ونحن نساؤكم فإلى أين سنذهب فى الآخرة؟ فأجابها: سيعذّب الله بكم الكفّار فى النار.

* * *

وأبشعُ الشنائع الداعشية تقع دومًا على النساء، تحديدًا، مع أن ضحايا الفورات والانفجارات الداعشية كثيرون. منهم قتلاهم من الدواعش الآخرين كرجال وشباب جبهة النصرة، وقتلاهم من أهل القرى الآمنة الذين لم يحملوا

سلاحًا، ومع ذلك يعتبرهم الدواعش أسرى حرب. وقتلاهم من الأسرى السوريين أو المراسلين الأجانب، المذبوحين أمام الكاميرات لترويع العالم.. ناهيك عن التمثيل بجثث هؤلاء، جميعهم أو بعضهم، تنفيذًا لمشيئة السماء المعبَّر عنها بالنصوص الشرعية (حسبما يفهمها الدواعش) من أحاديث نبوية وآيات قرآنية، صاروا اليوم ينشرونها على نطاق واسع باستعمال الميديا المعاصرة، خصوصًا الإنترنت، منها الآيات القرآنية «الكريمة» والأحاديث «الشريفة» النبوية. لكن ذلك كله، على بشاعته، يظل هو أخفَّ الشنائع الداعشية. لأن الذى يلقى حتفه على يد هؤلاء ذبحًا أو بوابل الطلقات، هو فى حقيقة الأمر قد مات، فلم يعد يشعر بفظاعة التمثيل بجثته أو برأسه المقطوع المتأرجح بين أيدى الدواعش. فالشاةُ لا يُضيرها سلخُها بعد ذبحها، حسبما قيل يوم مقتل "عبد الله بن الزبير" الذى قضى نحبه بطريقة مريعة، يمكن وصفها بأنها طريقة داعشية قديمة. ولكن تبقى من بعد ذلك حقيقةُ أن: مَنْ راح، استراح. أما النساء اللواتى يسوقهنَّ القدرُ إلى الوقوع بين يدى الدواعش، فهنَّ المأساةُ الأنكى لأنهن الباقيات اللواتى سيصير عليهنَّ احتمال صنوف العذاب: اقتيادهنَّ كالنعاج لبيعهن علنًا فى سوق الرقيق.. استعمال أجسادهن لإطفاء شهوات الدواعش، تحت المسمى الحقير الذى طفر مؤخرًا «جهاد النكاح».. استلابهنَّ من عزَّة الأنوثة إلى ذلّ القبول بأن أجسادهن مراحيض عامة للغانمين من الدواعش.. إثارة الخلل النفسى فى قلوب بعضهنَّ حتى يقبلن متطوعاتٍ، مرحبات بالدعارة وإتاحة أنحائهن الحصينة لمن أراد من الدواعش، على اعتبار أن هذه اللذة المجانية مبذولة فى سبيل الله. على زعمهم. وربما تطوّر الأمرُ فى بعض الأحيان، خصوصًا حين يحتدم، فيصير لدينا «داعشيات» يقاتلن بالحقارة والخسّة اللتين يقتل بهما رجالهنَّ، ويرضين بكل سرور عمّا يفعله الرجال

الدواعش بالنساء المأسورات اللواتى يسوقهن القدر الغشوم إلى الوقوع فى القبضة الداعشية.. وهذه هى أبشع صور «الاستلاب» وانتزاع الأنوثة، من هوس هذا الصنف المريض من الداعشيات.

ما نتيجة ذلك؟.. هناك نتائجُ بعضها مباشر يظهر من اليوم الأول، وبعضها الآخر عميق وغير مباشر، قد يتأخر ظهوره إلى ما بعد القضاء على الفورات الداعشية وانطفاء الهرج المريع الذى يُحدثه الدواعش المفسدون فى الأرض.. فمن النتائج المباشرة: تصير المرأةُ مشوَّهة التكوين، قلبًا وقالبًا، وهو ما يؤدى بالتالى إلى تشوه الرجل. لأن الأنوثة والذكورة وجهان متقابلان لمفهوم واحد، هو الإنسان. فإن تشوَّه الجانبُ الإنسانىُّ الأنثوى فسوف يلحق التشوُّه بالجانب الذكورى لا محالة. ومن تلك النتائج المباشرة: تصير النساء مبتذلات، رخيصات، فيزهد فيهنَّ المقاتلون بسبب وفرتهنَّ. وتنطفئ الغرائزُ التى كانت هائجة بسبب الحرمان، ثم أُشبعت فجأةً وبغزارةٍ تؤدى بالضرورة إلى الزهد فى النساء، والبحث عن شهوات أخرى تكون فى الغالب انحرافية. وفى تلك الحالة ينتشر نكاح الغلمان، مثلما حدث فى أفغانستان من خلال ما يعرف هناك بغلمان "الباتشا بازى" حيث يصير اللواط ملمحًا أساسيًا من ملامح الجهاد. ولن أطيل فى بيان هذه النتيجة القبيحة وشواهدها الأفغانية، ومَن أراد معرفة المزيد عنها فلينظر ما ذكرته عنها بوضوحٍ فى روايتى «جونتنامو». ومن النتائج غير المباشرة: تدمير الأجيال التالية من البشر المشوهين، الذين سيأتون كثمار مريرة لهذا الهوس النكاحى والحالة الحربية المسعورة. ليس فقط لأن الحرب تُخرج أطفالَ شؤمٍ كلهم (كما قال زُهير بن أبى سلمى فى معلَّقته الشهيرة) وإنما أيضًا لأن المرأة فى النطاق الداعشى، سواء كانت أسيرةً تم

بيعها أو متطوعة لجهاد النكاح أو مضطرة له، تكون قد تشوَّهت إنسانيتها. وليس بوسع امرأةٍ مثلها، إلا إنجاب أطفالٍ مشوهين نفسيًا. لن يمكن تربيتهم على أُسس إنسانية سليمة، لا سيما فى بلادٍ فقيرةٍ ومبتلاةٍ كتلك التى تنفجر فيها عادةً النزعاتُ الداعشية. النزعات التى قد تنتهى جولتها فى وقتٍ قصير أو طويل، بتدخل أمريكى أو بقتل الدواعش لبعضهم أو بقوةٍ حضارية قاهرة، لكن الأثر المريع للفترة الداعشية يبقى ممتدًا من بعد زوالها، لزمنٍ مريرٍ «طويلٍ» ولن يكفى جيلٌ واحدٌ يخرج للحياة مشوَّهًا، للخلاص من آثار التدمير الداعشى العميق وإنما ستمتدُّ آثارُ هذه البلايا الداعشية لاحقًا، فى عدة أجيالٍ تاليةٍ.

الضربة الجوية [1]

ما كدتُ أنتهى من كتابة السباعية الداعشية، وقبل انتهاء نشرها، حتى تواردت الأنباء عن اقتراب موعد الضربة الجوية المزمع القيام بها من أمريكا وشركائها العرب والأوروبيين. وقبل ابتداء الضربة الجوية، كتبت على صفحتى بـ«الفيسبوك» ما مفاده أن الضربة الجوية هذه ستكون نتائجها كارثية، ولن تؤدى إلا لمزيد معاناة للمدنيين وليس للدواعش، وستكون عملًا عبثيًا يماثل القصف الجوى الأمريكى على جبال «تورا بورا» فى أفغانستان، حيث ألقيت على الأحجار أطنان القنابل التى لم تصب طالبان بسوء، ولا مسَّتْ مقاتلى القاعدة،

(١) هذه الصفحات الختامية، أصلها مقالة نشرتها بجريدة "الوطن" يوم ٨ أكتوبر ٢٠١٤.. وهى منشورة فيما يلى بنصها، دون أى تعديل أو إضافة أو حذف.

وإنما أدت إلى انتشارهما فى الأراضى الأفغانية وفى عديد من البلاد الإسلامية التى وفد منها العرب الأفغان، ثم عادوا إليها فى غمرة ما كان يسمى ثورات الربيع العربى. ومع أن صفحتى الفيسبوكية يتابعها عشرات الآلاف من القراء النابهين، وهو عدد «حقيقى» وليس مزيفًا مثلما هو الحال فى كثير من الصفحات مزيفة العدد نظير مقابل مادى يدفعه صاحبها، ومع أن عديدًا من زوار الصفحة اهتموا بما كتبته عن هذه الضربة المتوقعة البائسة، وتم التفاعل مع عباراتى التحذيرية بكثافة بلغت عدة آلاف من زوار الصفحة. إلا أن رسالتى لم تصل بمداها إلى أكثر من ذلك، وتم كالعادة تجاهلها أو غض النظر عنها، لاسيما مع اقتراب الأيام «المباركة» واستعداد عموم الناس فى بلادنا لعمليات النحر الشرعى، بمناسبة وقفة عرفات وأيام العيد. وشغلهم النحر عن الذبح، والتظاهر بالفرح عن اتقاء الترح، والبهجة البلهاء المؤقتة عن الكارثة القريبة والمحققة.

وفى الأيام السابقة على عيد النحر، وأثناءها وبعدها، تواصلت الضربة الجوية.. الجبانة لأنها تجرى عن بعد، ومن السماوات العالية، وليس فيها مواجهات حقيقية مع القوى الداعشية المسلحة بعتاد أمريكى، وتقصفها طائرات أمريكية يتشارك فيها الأمريكيون وبعض أصدقائهم، بالطريقة المعبر عنها فى قولنا بالعامية المصرية: من بعيد لبعيد.

والعسكريون يعرفون أن الضربات الجوية لا يمكن أن تحسم حربًا، ويعرفون أن النصر أو الهزيمة لا يكونان إلا على الأرض، ولذلك كنا نقول أيام الجندية أو كانوا بالأحرى يقولون لنا: المشاة سيدة المعارك.. والعقلاء يعرفون

أن القصف الجوى الجبان «من بعيد لبعيد» إذا تم وحده، ينتهى عادة إلى بلايا وكوارث وأكاذيب، مثلما رأينا فى قصف التحالف الأمريكى لأنحاء ليبيا، وهو ما أعقبه فورة أنصار الشريعة والمقاتلة والعرب الأفغان وانتشارهم فى الأنحاء الليبية، التى لن تبرأ من وجودهم قبل مرور عقود من الزمان. ولا معنى للمجادلة العاطفية فى هذه الحقيقة. ومثلما رأينا فى قصف إسرائيل لغزة قبل شهور قليلة، وكيف أدى لمزيد استحكام لقبضة «حماس» على القطاع، حتى إنهم كانوا يعدمون عشرات الفلسطينيين بتهمة الخيانة العظمى، قبل يوم واحد من توقف القصف الإسرائيلى. ولما توقف القصف صاحت حماس: انتصرنا.. وقد انتصروا فى واقع الأمر! وأحكموا سلطتهم على الأرض، بعد مقتل ألف ومائتى فلسطينى جراء القصف الإسرائيلى الجوى الجبان، وتدمير البنية التحتية وحصول "حماس" على ملايين الدولارات كمساعدة لإعادة الإعمار. فيصيرون بذلك هم المصلحون.

وقد أدت الضربة الجوية الأمريكية البائسة على داعش[1]، إلى نتائج تجعل الدواعش يرون أنها «ضربة مباركة» تمت فى أيام عيد النحر «المبارك» ولسوف تؤدى كلما استطال زمنها إلى «بركات» كثيرة للجماعة الداعشية، وويلات كثيرة لغيرهم.. وفيما يلى، سوف نتوقف فى هذه السطور التالية عند النتائج الفعلية للضربة الجوية الأمريكية، التعيسة، على داعش.

(١) فى أصل المقالة : حتى الآن ..

أولًا: اتسعت رقعة الأرض التى تسيطر عليها داعش، واستطاع مقاتلوهم اقتحام مزيد من المدن والقرى العراقية. بل سعوا فى غمرة القصف الهزلى إلى أمر لم يجرؤوا عليه من قبل، هو الزحف إلى بغداد ومحاولة اقتحام السجن الكبير هناك، لتحرير أعوانهم المحبوسين فيه. وفشلت هذه المحاولة الدالة على اشتداد جرأة داعش، ومات خلق كثير لغير وجه الله، وأثبتت داعش قدرتها على الوصول لعاصمة العراق. مع أن القصف كان فى الوقت نفسه يجرى من السماء، ونراه على شاشات التلفزيون مثلما يشاهد الأطفال الألعاب المسماة «الفيديو جيم».. أما على الأرض، فقد حلت البركات على الدواعش وامتدت مساحة أرضهم وتزايدت جرأتهم وقويت شوكتهم. لماذا؟! لأن داعش ليست دولةً مركزيةً من الممكن قصف عاصمتها لإحداث شلل فى أطرافها. هى ليست كذلك، وإنما هى أقرب لأسراب جراد «مسلح» وإذا قصف الجراد، فلا بد أن ينتشر.

ثانيًا: بعد ساعات من ابتداء القصف الجوى، الجبان، نزح عشرات الآلاف من سكان القرى والمدن الصغيرة فى شمال سوريا والعراق، وهربوا من ديارهم أملًا فى النجاة من مطرقة القصف السماوى وسندان السُّعار الداعشى. ومن يومها وهم يهربون. ليس إلى أنحاء سوريا والعراق، فكلها أنحاء منكوبة، وإنما إلى الحدود التركية. وهنا يتحقق المراد! يحصل النازحون على أمان مؤقت، وتبدو تركيا كأنها تقوم بدورها الإنسانى فى احتواء النازحين، وتخلو النواحى من سكانها فيستطيع الداعشيون التهامها بأقل مجهود. ثم من بعد ذلك، يعود النازحون أو بعضهم إلى نواحيهم وقد صارت بقبضة داعش، المدعومة أصلًا من تركيا لتحقيق مصالحها الحقيرة.. محاصرة الأكراد، خلخلة

المنطقة العربية الملاصقة لها وبالتالى ازدياد قدرتها على التأثير الإقليمى، التعاون الأمريكى التركى على الإثم والعدوان فى الوقت الذى يرفع فيه "أردوغان" راية الإسلام ويتباكى على شهداء رابعة).

ثالثًا: قامت الطائرات الأمريكية وحليفاتها العربية والأوروبية بقصف مواقع النفط التى تسيطر عليها داعش، وتحصل منها يوميًا على مليونى دولار. فقام الداعشيون بإيجاد مصادر تمويل بديلة، لتوفير نفقات حربهم المقدسة، فقاموا بأعمال أشنع بكثير من الاستيلاء على منابع النفط. منها بيع القطع الأثرية النادرة التى سلبوها من شمال العراق، ومنها بذل المزيد من الولاء للأتراك الداعمين للدواعش منذ يومهم الأول، ومنها احتدام العمليات العسكرية ذات الطابع الانتحارى للحصول على مزيد من الأرض ومن خيراتها.. وعلى الجانب الآخر، صارت مصافى النفط حرائق مستعرة لا تجد من يطفئها.[1]

رابعًا: مع ابتداء الضربات الجوية مالت إلى الدواعش، قلوبُ المؤهلين للدعش والارتداد للهمجية الأولى، باسم استعادة مجد الإسلام الغابر وإحياء وَهْم الخلافة. فرأينا فى أنحاء العالم ردود فعل متعاطفة، كلها تصب فى مصلحة الدواعش، منها: إعلان حركة طالبان بباكستان ولاءها لخليفة داعش، ودعوتها لكل المجاهدين باسم الإسلام إلى دعم داعش بكل ما يمكنهم من السبل والوسائل. ومنها خروج جماعات داعشية وليدة فى المدن الأوروبية للتنديد بما يجرى لإخوانهم الدواعش فى العراق وسوريا، وكَثُر احتكاك هذه

(١) لاحقًا عاد الدواعش وسيطروا ثانية على مصافى النفط، وباعوه بأبخس الأثمان. فكان ذلك من اسباب إنهيار سعر البرميل من مائة وخمسة عشر دولارًا، إلى أقل من ثلاثين!

الأجنة الداعشية بقوات الأمن وبالمواطنين لإشهار الحركة ولفت الأنظار إليها شرقًا وغربًا. ومنها التحول التلقائى لكارهى السياسة الأمريكية الخارجية، الباطشة، إلى تعاطف مع المقصوفين من الدواعش الذين يرفعون راية الإسلام الحنيف. ومنها جرأة بعض الواقفين بعرفة قبل أيام، على رفع راية داعش يوم وقفة الحجاج بجبل عرفة! وهم لا يعرفون، لأنهم جهلة، أن أجداد الدواعش من القرامطة ذبحوا الحجاج يوم وقوفهم بعرفة. ولا يعرفون أن آباء الدواعش اقتحموا الحرم المكى وقتلوا عشرات الحجاج الأبرياء، باسم إحياء شريعة الإسلام.

خامسًا: لأن الدواعش يتعرضون للقصف الذى يرونه ظالمًا، فقد انهمكوا فى أفعالهم السابقة التى وإن كانت ظالمة، فقد صارت مبررة، لأنها لو لم تكن شرعية خالصة، فهى ضرورية. ولأن الضرورات تبيح المحظورات، قامت الحركة بتخفيض أسعار النساء اللواتى تم بيعهن للمقاتلين كى يتصبروا بالنكاح على الجهاد المقدس، وهو ما يعنى ضرورة الحصول على عدد أكبر من الأسيرات (الإماء) لتلبية الحاجات الجنسية للمقاتلين. ومن هنا، تطوعت بعض النسوة المختلات عقليًا بإتاحة أجسامهم مجانًا للمقاتلين الدواعش، تعاطفًا معهم، وهو ما سمى مؤخرًا: التطوع لجهاد النكاح.. ومن هنا، لم يعد للدواعش ما يدعوهم لاعتبار أى مواثيق دولية (وكانوا لا يعتدون بها أصلًا) لأن الدول تحاربهم، فهم يحاربون العالم أجمع، والحرب خدعة. فليفعلوا كل ما بدا لهم، وكل ما يضمن بقاءهم، وليذبحوا مزيدًا من الرهائن الغربيين (مع أنهم لم يحاربوهم، وليسوا أسرى) وليقوموا بذلك علانية لتنشره قنوات التلفزيون فيعرف الناس أن

الـدواعش أقويـاء، مهمـا تعرضـوا للقصـف.. بعبـارة أخـرى، لـم يـؤد التهـريج الأمريكى، إلا لمزيد من التهريج الداعشى الذى صار كأنه مبرر.

*　*　*

وبعد.. فتلك هى بعض نتائج الحملة الجوية على داعش، وكلها كما رأينا نتائج كارثية (كُتبت هذه السطور، أول أيام العيد[1])ولسوف يتضح المزيد منها فى الأيام المقبلة. وقد رأيتُ من الواجبِ الإشارة إليها فى هذه المقالة "التتمة" التى سأنهيها ببعض العبارات السريعة التى بلا شرح، ولكنها تستحق التأمل.. فأقول: من العار على أى بلد عربى الاستعانة بأمريكا، فهى لم تضع أصابعها فى مكـان إلا وصيرته خرابًا بلقعًا (فيتنـام، الصـومال، أفغانسـتان، العـراق، ليبيـا.. إلخ). ومن العار أن يذبح المسلمون الأضحيات، وداعش تذبح النـاس مسلمين وغيـر مسـلمين. ومـن العـار علـى العـرب أن يكونـوا أتقيـاء وأن يزعمـوا أنهـم مسلمون أنقياء، ولا شأن بهم بما يجرى فى سوريا والعراق، فهم بنص الحديث الشريف، ليسوا مسلمين، لأن النبى قال بالنص: من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

.. متى تنطوى هذه الصفحة الداعشية الشنيعة[2]؟

---

(١) المقصود هنا، عيد الأضحى سنة ٢٠١٤.

(٢) لن تنطوى، ما دامت أسباب ظهورها قائمة، لكنها قد تتخذ مسميات أخرى (غير داعش) مع بقاء الجوهر.

المأساة الكوردية

للعامية المصرية عبقريةُ خاصةُ تظهر أحياناً فى بعض التعبيرات التى تختصر كثيرًا من المعانى والدلالات فى مفردة واحدة، وقد بدأت فى التقاط بعض هذه المفردات العامية العميقة، لتكون مدخلًا لاستكشاف عبقرية التعبير العامى، تمهيدًا لجمعها لاحقًا فى كتاب. بيد أن عوامل عديدة منها اضطراب أحوالنا وعقلنا الجمعى، وعدم التركيز العام فى الدقائق من الأمور المهمة، دعتنى لتأجيل هذا العمل إلى أجل غير مسمى.

ومن وجوه العبقرية فى العامية المصرية، قولنا لمن يحتال على شخص ويأخذ منه شيئًا دون أن يعطيه حقه، أنه بحسب اللفظة العامية: استكرده.. وهو فعل ماضٍ مشتق من الأصل العامى المتداول بين عموم الناس وعوامهم، أعنى كلمة «استكراد» التى تشير إلى الاحتيال الرامى إلى التهرب من توفية صاحب الحق حقه. وبالطبع، فالكلمة العامية ومشتقاتها مأخوذة مباشرة من «الأكراد» الذين تم «استكرادهم» على يد العرب طيلة قرون طوال، على النحو الذى سنعرض له فيما يلى، ابتداءً بتعريف الأكراد ونشأتهم الأولى وأصولهم الضاربة فى عمق التاريخ.

غموض النشأة

الأكراد أو الكرد (باللغة الكردية: الكورد) هم الجماعة المسلمة فى معظمها، الساكنة فى المنطقة الشاسعة التى كانت تسمى كردستان، أى مكان الأكراد أو بلادهم. وهى منطقة تشمل شمال العراق وجنوب شرق تركيا، كما تشمل شمال غرب إيران وشمال شرق سوريا. وتعداد الأكراد اليوم، يتراوح بين خمسة وعشرين مليون شخص وثلاثين مليونًا.وهم يتوزعون جغرافيًا فى كردستان على النحو (التقريبى) التالى: خمسة عشر مليونًا من الناس فى تركيا، أربعة ملايين فى العراق، أربعة ملايين فى إيران، مليونان فى سوريا.. وفى بلاد العالم المتفرقة كثير منهم، ففى ألمانيا أكثر من نصف مليون كردى، وفى الخليج العربى مئات الآلاف، وفى أفغانستان وما حولها عشرات الآلاف.

ويشتهر الأكراد بجدية رجالهم وجمال نسائهم، وبأنهم قوم بسطاء يعيشون حياة بسيطة فى مرتفعات وسهول فسيحة منذ آلاف السنين. والمؤرخون الشغوفون باكتشاف الأصول الأولى للأكراد حائرون بين عدة نظريات، أبسطها قولهم إن الأكراد هم «البدو» من الفرس، بمعنى أن الأمة الفارسية (الإيرانية) العريقة كان منها سكان المدن والحواضر، ومنها المزارعون ساكنو السهول الفارسية الشاسعة الخصبة.. ومنها البدو الذين احترفوا الرعى فى المناطق المرتفعة (جبال زاجروس) وهؤلاء هم الذين صاروا لاحقًا يعرفون عند العرب بالأكراد، بينما يسمون أنفسهم "كورد" ويكتبون اسم بلادهم : كوردستان.

وفى المقابل من ذلك، يرى مؤرخون آخرون أن الأكراد هم الجماعة القديمة التى وفدت من منطقة «ميديا» بالأناضول، وتمازجت مع السكان المحليين فى شمال كردستان، فكان الأكراد هم نتاج هذا التمازج الذى جرى قبل قرابة ثلاثة آلاف سنة. وقد شارك هؤلاء فى الأحداث الكبرى التى جرت فى تلك المنطقة الوعرة، فانتصروا أحيانًا قليلة، لكنهم كانوا فى معظم الأحيان ضحية للحروب وللويلات التى طالما كانت بلادهم مسرحًا لها، أو بالأحرى «محل الصدام» فى حروب: الفرس واليونان، الآشوريين والأكاديين، المسلمين والبيزنطيين، الصفويين والعثمانيين.. ناهيك عن البلايا الكثيرة التى لحقت بالأكراد خلال الاجتياحات العسكرية المتوالية على هذه الأرض الخطرة التى شهدت «رعب العالم» وما زالت تشهده إلى اليوم على يد "داعش".

والخلاف حول أصل الأكراد قديم، وقبل قرابة ألف سنة ظهر هذا الاختلاف فى أصولهم، من خلال كتاب المسعودى "مروج الذهب ومعادن الجوهر" حيث يقول فيه: الناس متنازعون فى بدء الكرد، فمنهم من رأى أنهم من (أحفاد) ربيعة بن نزار، انفردوا فى قديم الزمان وجاوروا الأعاجم والفرس، فحالوا (تحولوا) عن لسانهم (العربي) وصارت لغتهم أعجمية. ومن الناس من رأى أنهم من مضر بن نزار، وأنهم من ولد كرد بن مرد بن صعصعة بن هوازن، انفردوا فى قديم الزمان لوقائع جرت بينهم وبين غسان. ومنهم من رأى أنهم من ربيعة ومضر، اعتصموا بالجبال طلبًا للمياه والمراعى، فحالوا عن اللغة العربية.

ثم يسرد "المسعودي" أقوالًا أخرى غرائبية، فى أصل الأكراد. منها أنهم أولاد زوجات سليمان النبى، اللواتى وقع عليهم الشيطان فصرن حوامل منه! ولا ينبغى لنا اليوم أن نندهش كثيرًا من هذه الأفكار الغرائبية، فقد كانت شائعة فى

الأزمنة القديمة، ونقل لنا المؤرخون بعضًا منها على سبيل الحكاية. حيث نجد مثلًا، المصريين هم أحفاد مصرائيم! والعرب أسباط الجارية المصرية هاجر! والعمونيين والمؤابيين (وكلاهما أصل سكان الأردن الحاليين)أبناء زنا المحارم ! نكح البنى لوط ابنتيه، فأنجبت إحداهما "مؤاب" جد المؤابيين، وأنجبت الأخرى "بن عمّى" جد العمونيين.

وقد كانت الخرافات التوراتية، دومًا، هى المصدر الذى جاءت منه هذه التفسيرات الغرائبية لأصل الجماعات الكبرى، التى أدانها بهذه الأصول المشوهة أبناء الرب (اليهود) الذين لا يعرف أحد أصولهم أصلًا.. نعود لمسألة الأصول الكردية، فنجد الجزء الأول من الكتاب الموسوعى الذى وضعه أحد الأكراد المعاصرين "د.جمال رشيد أحمد" وجعله بعنوان.. ظهور الكورد فى التاريخ.. وفى هذا الجزء الذى يقع فى ألف صفحة، تحتشد الآراء والأقاويل المتضاربة التى تحاول جاهدة أن تكتشف «أصل» الأكراد عرقيًا، فلا نكاد بعد خوض هذا الخضم، نخرج بشىء محدد. لماذا؟ لكثرة التهاويل ولاختلاط العلمى بالخرافى، كما هو المعتاد عند بحث الأصول الأولى لأى جماعة إنسانية كبرى. وهو ما يعود بنا إلى ما بدأنا به، حيث تتجلى عبقرية العامية المصرية فى فض الخلاف والتباين الشديد فى الآراء المتضاربة حول أصل «المصريين» ودولتهم، فتخرج العقلية الجمعية المصرية من ذلك كله، بشكلٍ مبتكرٍ تعبر عنه العبارة الشهيرة: إلّ بنى مصر كان فى الأصل حلواني!

وبصرف النظر عن مسألة الأصل الأول للأكراد أو غيرهم، لاستحالة الوصول إلى رأى علمى مقنع، لا سيما إذا عدنا إلى ما قبل التاريخ المكتوب، نقول إن الأكراد أمة كبيرة مسلمة، تعيش مع العرب منذ مئات السنين، وتواجه

اليوم حرب إبادة بشعة بأيدٍ عربية ومعاونة تركية.. ولنختتم هذه النقطة الدقيقة بقصيدة غير مشهورة لمحمود درويش عن الأكراد (وسنختتم هذا الفصل بقصيدة مجهولة كتبها عنهم) يقول فيها ما بعضه:

يتذكر الكردى حين أزوره،

غَدَهُ

فيبعده بمكنسة الغبار،

وينفض عن هويته الظلال.

هويتى لغتى، أنا لغتى

وقلبى جمرة

.. باللغة انتصرت على الهوية

قلت للكردى: باللغة انتقمت من الغياب.

فقال: لن أمضى إلى الصحراء.

قلت: ولا أنا.

ونظرتُ نحو الريح

اللغة المتحدية، والهوية

من أعظم البلايا التى يمكن أن تلحق بأمة من الأمم، أن يصل الجهل بأهلها إلى الدرجة التى لا يمكنهم معها، تحديد دلالة المفردات والألفاظ

المستعملة بينهم. فلا يمكن لهم التواصل فيما بينهم إلا بالقدر الذى تتواصل به الحيوانات العجماء، حين تصدر أصواتًا مبهمة لا تفهم إلا على نحو إجمالى عام، فهذا «الصوت» تعبير عن الألم، وذاك «الصوت» نداء للتسافد والتناكح، أو إنذار للتهديد واستعراض القوة، أو إعلان لحالة ابتهاج مؤقت كتلك التى نراها فى جبلاية القرود.. وهذة «الأصوات» لا يصح أن نسميها كلمات أو ألفاظًا أو مفردات، أو غير ذلك من مكونات «اللغة» بالمعنى المحدد لهذه الكلمة المميزة للنوع الإنسانى خصوصًا.

ولا نريد أن نطيل هذه المقدمة بالكلام عن أهمية اللغة للبشر، فمن المعروف أن الإنسان لم يعرف الحضارة إلا عندما تراكمت معارفه بعد تطور لغته وكتابتها، بينما ظلت بقية الحيوانات تحيا فى دورات متتالية لا يختلف فيها جيل عن سابقه، مثلما هو الحال فى الإنسان الذى امتاز بالتفكير (من خلال المفردات) والتدوين (لنقل المعرفة ونتائج الأفكار) والتواصل (بانتقال المعارف من جيل إلى جيل).

وعندما كتبتُ عن الأكراد، جاءتنى عدة تعليقات من مثقفين أكراد (كورد) فيها بالإضافة إلى الحماسة الشديدة لتأكيد أصولهم التاريخية العتيقة، إشارات مفيدة منها أن العرب أطلقوا على «الأكراد» هذا الاسم، قياسًا على قولهم بالعربية «أعراب» للتمييز بين العربى والأعرابى، بحيث تصير صفة «الأعرابي» دالة على ساكن الصحراء الذى يعيش على الرعى. فلما رأى العرب، أن هؤلاء القوم يشبهونهم ولديهم ماشية يرعونها فى السهول، سموهم «الأكراد» قياسًا على «الأعراب».. مع أن الاسم الصحيح عندهم، بحسب اللغة الكردية، هو: الكورد.

قلت فى نفسى إنه لا بأس من تجاوز هذه النقطة الخلافية بحل بسيط، هو استعمال اسم الكرد «المفرد: كُردى» بضم الكاف أو كتابته: كورد، كوردى. وتحاشى لفظ «أكراد» الذى يغيظ الكُرد من العرب! على الأقل فى هذه الفترة الحالية، الحالكة، التى يتعرض فيها الكُرد للإبادة على يد العرب والأتراك والفرس. سواء بالذبح الداعشى المعاصر ومن قبله بقنابل الغاز التى استعملها صدام حسين ضد كُرد العراق، أو بالاضطهاد التركى الذى لم يهدأ منذ أيام كمال أتاتورك إلى أيام «أردوغان» الذى يتزعم النزعة الإسلامية ولا يجد أى غضاضة فى إبادة الكُرد، أو على الأقل قهرهم.. وبالمناسبة، يوم كان أردوغان فى القاهرة ضيفًا على حكامها من الإخوان المسلمين، ووقف متحدثًا بفضائل الإسلام أمام وسائل الإعلام، كان الطيران التركى يشن غارات عسكرية قاسية على منطقة ديار بكر/ الكوردية، فى اللحظة نفسها التى كان أردوغان يلقى خطابه الإسلامى! كأن الكُرد ليسوا من جملة المسلمين.

* * *

من هنا قلت فى نفسى، إن هؤلاء يكفيهم ما فيهم وما مروا به من مآسٍ مروعة، فلا بأس من مراعاة هذه المسألة اللفظية اليسيرة، بتسميتهم «الكُرد» المطابقة لفظًا لكلمة «كورد» التى يحبون أن يسموا أنفسهم بها. وهذا ليس من باب «جبر الخاطر» مع أن «خاطر» الكُرد يحتاج جبرًا، بل ويستلزم اعتذارًا من العرب على ما فعلوه بالكرد طيلة القرون الماضية، ويفعلونه الآن. ولنكف عن ترديد هذه العبارة الرقيعة الجوفاء «داعش لا تمثل العرب ولا الإسلام» لأنها عبارة لا معنى لها، إذ إن الدواعش فى نهاية المطاف عرب ومسلمون، مهما تنصل منهم العرب والمسلمون. إن تسمية «الكُرد» بذلك المسمى، هى

الأفصح لغة والأصوب اشتقاقًا من (أكراد)، لأننا نقول عن المفرد كُردى وليس أكراديًا، وكردية وليست أكرادية.. ونقول كُردستان، لا أكرادستان!

يقودنا ما سبق، إلى الكلام عن اللغة الكردية، وقد مرَّتْ علينا قبل قليل، سطورٌ من قصيدة لمحمود درويش أهداها إلىَّ الكاتب الكردى "سليم بركات" وأشار فى السطر الأول منها إلى المآسى الكردية الحالية، التى تنبأ بها الشاعر الفلسطيني حين قال: يتذكر الكُردى حين أزوره، غده.. وهو سطر شعرى منضبط على القاعدة العروضية «العروض هو معيار الشعر» وعلى تفعيلة بحر الكامل، أحد أهم وأشهر بحور الشعر العربية. ويمكن صياغته عروضًا كالتالى: متفاعلن، متفاعلن، متفاعلن، فعل (يتذكر ال، كردىُ حى، ن أزوره، غده). فإذا أعدنا ترتيب الكلمات، بعيدًا عن الإيقاع العروضى، كانت دالة بشكل أوضح على نبوءة الشاعر: حين أزور الكُردى، يتذكر غده! أو بقول أوضح: حين يرانى الكُردى، وأنا الفلسطينى صاحب المأساة، يتذكر مآسيه التى مرت والتى ستقع غدًا.. ويلى ذلك فى القصيدة، قول الشاعر: فيزيحه بمكنسة الغبار! يعنى يطرده عن ذهنه.

وفى السطر الأخير من القصيدة، يقول الشاعر أو هو بالأحرى يقول فى ختامتها: باللغة انتصرت على الهوية، قلت للكردى: باللغة انتقمت من الغياب، فقال: لن أمضى إلى الصحراء، قلت: ولا أنا، ونظرت نحو الريح.. ولسوف نفهم هذه المفردات الشعرية، ودلالتها العميقة، فى ضوء ما سيأتى.

* * *

يتوزع الكُرد اليوم على البلاد التى طالما سعت لطمس هويتهم الحضارية والحاضرة: تركيا التى تتحدث التركية، وإيران التى تتحدث الفارسية، والعراق وسوريا اللتان تتحدثان العربية.. والكُرد فى الشتات، موزعون على بلادٍ شرقية ومستغربة، تتحدث لغات مختلفة.

ويتوزع النزوع السياسى للكُرد على عدة أحزاب وقوى سياسية، بعضها معادٍ لبعضها الآخر، وكثير منها مدعوم من الدول التى لا وفاق فيما بينها، أو بينها حرب: العراق وإيران سوريا والعراق تركيا وسوريا تركيا وإيران.. لكن هذه الدول على خلافها واختلافها المرير، يجمعها هَمّ واحد يسعون جميعاً إليه سعيًا شديدًا، هو: قمع الكُرد أو تهجيرهم أو الخلاص نهائيًا منهم بحرب إبادة، كتلك التى تقوم بها داعش اليوم.

ما الذى يجمع الكُرد، إذن؟ بالطبع يجمع بينهم البؤس العام والظلم الشديد، لكن هذا لا يكفى لتحديد إطار «الهوية» الكردية. وبالطبع، يجمع بينهم أنهم يسكنون منطقة متصلة جغرافيًا لها اسمها فى الأذهان وليس فى الخرائط: كردستان. لكن هذا الاتصال الجغرافى مقطوع بحدود سياسية رسمها على الورق المستعمرون، ومات بسبب هذا الرسم المسمى «الحدود» ما لا حصر له من الناس.. وبالطبع، يجمع بين الكُرد التاريخ المديد، المشترك. لكن التواريخ يكتبها الأقوياء لا أصحاب الحق، والمنتصرون والمسيطرون على مقاليد السياسة، لا أهل المعاناة من عسف المنتصرين المسيطرين على مقاليد السلطة السياسية! .. فما الذى يجمع الكُرد، إذن؟.

إن الترابط الأول الداعم للهوية الكردية، هو اللغة. فاللغة هى مستند الهوية، الأهم، للكُرد ولغير الكُرد من الأمم. حتى لو غفل أفراد هذه الأمة أو تلك عن خطورة هذا «الرابط» الأول والشرط الأهم. فاللغة هى «الرحم» الأساسى الذى يتوالد منه الناس ويتوارثونه، وقد توهم الشاعر ولعبت به الظنون والأمنيات حين قال: «والأرض تورث كاللغة».. لأن اللغة متوارثة من دون شك، والشك كل الشك فى وراثة الأرض والحيز المكانى والوحدة السياسية. الناس ترث اللغة جيلًا بعد جيل، بشكل تلقائى لا افتعال فيه، أما الأرض فقد يتم تهجيرهم منها أو تقسيمها وفقًا لمصالح الأقوياء، أو تباع بين الأفراد وتتم المساومة عليها بين الدول. الأرض ربما تورث وربما لا تورث، أما اللغة فهى لا محالة موروثة ومتوارثة بين الأجيال، اللهم إلا إذا كان أهلها من العته والسفاهة، بحيث يهجرون لغتهم طواعية. على النحو الذى نراه اليوم فى كثير من العرب المعاصرين، الذين إذا يظهرون الرقى باستعمال الإنجليزية والفرنسية، وهم لا يعلمون أنهم فى واقع الأمر يظهرون الخيبة.

والكُرد متمسكون جدًا بلغتهم، مع أنهم يخضعون لحصار ثقافى مريع من العرب والفرس والأتراك. وفى معظم الأنحاء لا يُعترف باللغة الكردية لغةً رسمية، ولا يُبذل أى جهد من أجل المحافظة عليها (على العكس، تبذل جهود مضنية لطمسها).. غير أن الكُردى يعرف أن الرابط الأول بين أهله المتوزعين على البلاد، المتعرضين لعمليات الإبادة المنظمة والطمس المريع، هو رابط اللغة. فى العراق وسوريا اللغة العربية هى «الهوية» العامة، وكذلك الحال فى إيران الفارسية، والأناضول التركية.. وباللغة، انتصر الكُردى على الهوية السياسية المستعارة فى المواضع التى يعيش فيها، وباللغة انتقم من الغياب ومن

التغييب المتعمد لهويته الأصلية، وباللغة استعصى على الذوبان فى لسان الآخرين خصوصًا العرب، فقرر أنه لن يمضى إلى الصحراء!

واللغة الكردية لها اليوم لهجتان معروفتان. وفور حصول الكُرد فى العراق على شيء من الاستقلالية بعد إسقاط صدام حسين، سارعوا إلى الاهتمام بنشر اللغة الكردية والترجمة إليها (ومن اللطائف، أن أول لغة ترجمت إليها رواية "عزازيل" المترجمة الآن إلى أكثر من عشرين لغة عالمية، كانت اللغة الكُردية!).. كما يقوم الكُرد حاليًا، أو كانوا يقومون قبل قيام الدواعش عليهم، باستعمال كل السبل المؤدية إلى ازدهار لغتهم بعد طول تغييب، أعنى تلك السبل والوسائل المعاصرة مثل: القنوات التلفزيونية الفضائية، شبكات التواصل الاجتماعى على الإنترنت، وسائط نقل المعلومات. وغير ذلك.

ومؤرخو الكُرد يعودون بأصل لغتهم، إلى الزمن السومرى العتيق والكتابة المسمارية الغابرة، الباقية آثارها فى ألواح الطين. ويفتشون عن المسار الذى تطورت خلاله اللغة الكردية، عبر لغات مندثرة كالحورية والخلدية والآرامية (السريانية) التى وردت بها أولى الإشارات إلى: بيث قردو.. أى «كردستان».

جذور القومية

فى إطار التأصيل التاريخى للأمة الكردية، يقول د.جمال رشيد فى بداية الجزء الثانى من موسوعته المنشورة بعنوان «ظهور الكورد فى التاريخ» مايلى: إن المنطقة التى يعيش فيها الكرد منذ آلاف السنين، كان اسمها فى البدء (سوبارتو) ولما جرت الهجرات القديمة واختلط المهاجرون بالسكان المحليين،

ظهرت مجموعة إثنية (عرقية) ذات سمات ثقافية ولغوية جديدة فى الأوساط السوبارية، فلم يجد الناسخ السامى طريقًا سهلًا فى تسجيلها بالخط المسماري..

وهذه العبارة تحتاج تقويمًا وبعض الشرح، الضرورى، قبل الانتقال إلى النقطة التالية، وفى ذلك نقول:لا يصح أن يقال عن الذى يسجل بالخط المسمارى إنه «ناسخ» لأن النسخ هو نقل محتوى كتاب، بكتابته على الجلود (الرقوق) أو البردى أو الورق، اعتمادًا على نسخة أقدم يقوم أحدهم بنسخها (نقلها) فيسمى هذا الفعل نسخًا، لأن فاعله ناسخ، وهذه العملية العلمية (استنساخ الكتب) هى فى الأساس، تقليد يونانى ثم إسلامى من بعد، ولا نعرف أن السومريين كانوا يقومون بها باعتبارها وظيفة مستقلة عن عملية طباعة الصفحات على ألواح الطين الطرى، بالمسامير.

كان «التدوين» السومرى العبقرى، يتم قديمًا بنقش شكل الحروف بمسامير معدنية، فى لوح طينى لزج. ثم يجرى تجفيفه بالنار، بعد امتلائه بالثقوب الدالة على الحروف، وتحفظ هذه الألواح الجافة «المنقوشة» على النحو الذى نعرفه اليوم فى شكل كعك عيد الفطر المنقوشة صفحته العليا، ومن هنا سميت تلك الطريقة بالكتابة المسمارية. ولم يكن «النسخ» مستعملًا على نطاق واسع «مؤسساتي» فى ذاك الزمان القديم أو بالأحرى: لم يكن مهنة. لأن التدوين كان عملًا قليل الحدوث، وكان فى الغالب يقتصر على ذكر أعمال الملوك وتسجيل مآثرهم، وعلى حفظ النصوص المقدسة كالملحمة البديعة المسماة «أنوما إيليش» أى حدث فى الأعالى. وهى قرآن سومر، وكتابها الدينى المقدس الذى يحكى بدء الخليقة وأسرار الآلهة.

لم يكن هناك آنذاك وظيفة اسمها «ناسخ» مثلما هو الحال فى الزمانين البيزنطى والإسلامى. ولو كان، لما صح وصفه بصفة «السامى» لأن فى ذلك وقوعًا فى الفخ الشهير الذى نصبه بعض الفيلولوجيين (فقهاء اللغة) بتأثير توراتى، حين جعلوا لهذه اللغات المتقاربة بحكم تجاور المتحدثين بها والمتوارثين لها (الآرامية، السريانية، العربية، العبرية...إلخ) اسمًا مراوغًا هو: اللغات السامية! نسبة إلى سام بن نوح، الشخصية التوراتية التى لم يعرفها التاريخ، وجعلوا اللغات الأخرى فى مجموعة باسم: اللغات الهندو/أوروبية! وهو تعريف مكانى بحسب الرقعة الجغرافية، وليس تعريفًا مراوغًا مكسوًا بصفة عقائدية منسوبة إلى «سام» على اعتبار أن نوح النبى، كان له ابنان هما: سام، و حام.. وحتى لو صحَّ ذلك، فأين اللغات الحامية؟! ناهيك عن أن العالم الفعلى لا التوراتى، لم يعرف ولم يؤرخ ولم يعترف بسام أو حام. ويرى عديد من الباحثين أن حكاية طوفان نوح التوراتية، كانت فى الأصل قصة رجل طيب لم يغرق فى فيضان نهر «ديصان» المريع الذى وقع فى الأزمنة القديمة، وصاغ الشعراء قصته فى ملحمة عرفت باسم "طوفان نهر ديصان" وعنها نقل اليهود القصة التوراتية، بعدما سمعوا بها أثناء زمن السبى البابلى.

نعود إلى جذور اللغة الكردية وإلى كتاب د. جمال رشيد (الذى لا تقلل الملاحظة النقدية السابقة من قيمته) حيث يقول ما نصه: سيادة اللهجات الآرية على لغة الكاسيين والحوريين، وضعت منذ الألف الثانى قبل الميلاد، اللبنة الأولى لولادة اللغة الكوردية فى التاريخ، ثم إن نشوء دولتى كاردونياش فى بابل، وميتانى مع عاصمتها ببلاد كوردا (الجزيرة) تحت إمرة العناصر الآرية، أوجد الأرضية القوية لظهور البوادر القومية الكوردية.. وهذا التمازج الحضارى فى كوردستان، هو جزء من علم الكوردولوجيا (يقصد: علم التاريخ الكردى)

الـذى لا علاقـة لـه بالأحـداث التاريخيـة التى جرت فى شمال وشـرق وادى الرافدين (يقصد: العراق).

نخرج ممـا سـبق بـأمرين، الأول منهمـا: أن كردسـتان هـى وارثـة سـوبارتو، بمعنى أن الكرد هـم نتاج التمازج الـذى جرى بين الجماعات المستوطنة فى المنطقة التى كانت تسمى «سوبارتو» فصارت تسمى عندما تغيرت لغة أهلها «كردستان».. والأمر الآخر: أن بزوغ فجر القومية الكردية، كان فى زمن سحيق (قبل أربعة آلاف عام) يعنى قبل ظهور الديانات الثلاث المشهورة، أو بالأحرى الديانة الواحدة ذات التجليات الثلاثة الباقية إلى اليوم: اليهودية، المسيحية، الإسلام.. وهـو مـا يفسـر وجـود ديانـات موغلـة فـى القـدم بمنطقـة كردسـتان الحالية، كالأزيدية التى ذبح الـدواعش قبـل أسابيع رجالها واستحيوا نساءها، باسم الإسلام!

وبطبيعـة الحـال، تطـورت اللغـة الكرديـة خـلال الألفيـات الأربـع الماضيـة (لأن اللغة بطبيعتها كائن متطور) فتحددت مع عملية التطور اللغوى، الهوية الكردية.. قال الشاعر: من أنا؟ هذا سؤال الآخرين ولا جواب له! أنا، لغتي.

وبطبيعة الحال أيضًا لا يمكننا هنا استعراض التطورات التى جرت على اللغة الكردية خلال تاريخها الطويل، ولذلك سوف نكتفى بالإشارة إلى ما ذكره د.جمال رشيد (وغيره من الباحثين) حيث قال: لكنية الأمة الكوردية مصدران تاريخيان هما «الكورد» المشتق من صيغة «كوردا» التى احتواها لوح أكدى (يقصـد: من زمن الحضارة الأكدية، الأكادية) نُقش فى الألـف الثالـث قبـل الميلاد. ولكلمة «كورت» المشتقة من اسم اتحاد قبلى ميدى (يقصـد: نسبة إلى ميديا، بالأناضول) استوطن أصحابه كوردستان خلال الألـف الثانى قبـل

الميلاد، حسبما ورد فى سجلات الآشوريين. وفى زمن فاوستوس البيزنطى (القرن الرابع الميلادى) عرفت بلاد الكورت أى كردستان، بصيغة «كوردش» التى انقلبت إلى كوردستان.

وتأتى أهمية هذه الإشارة من دلالتها على عراقة الأمة الكُردية فى التاريخ، وتأكيدها أن الكُرد ليسوا بالقوم الأقل عراقة من العرب. وربما كانت القومية الكُردية أقدم وأكثر أصالة من مثيلتها العربية، التى لا نعرف لها جذورًا تاريخية سابقة على الألف الأول قبل الميلاد.

وفى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وبتأثير الـدين الإسلامى الذى صار عقيدة الغالبية العظمى من الكُرد، طغت الثقافة العربية على سكان كردستان فصاروا يكتبون لغتهم بالحرف العربى، مع أن الخط العربى لـم يكـن يلائم مفردات الكُردية من حيث إيقاعها الصوتى (الفونيم) ثم صار المؤلفون الكُرد يكتبون أعمالهم باللغة العربية، أو صار معظمهم يفعل ذلك.

و فى القرن العشرين، مع وقوع الكُرد تحت سطوة حكومات متعددة ذات قوميات مستقلة، أجبر الكُرد على هجران لغتهم وحُرِّم عليهم الكتابة بها. فالجزء التركى من كردستان أجبر سكانه بعد التحول الأتاتوركى، على الكتابة بالحروف اللاتينية. وهُجر الخـط العربـى والحـروف العربيـة التـى طالمـا تـأنق الأتراك العثمانيون فى الكتابة بها، وفى ابتكار أشكال فنية منها مثل خط الطغراء البديع.

وفـى روسـيا البلشـفية أجبـر الشـيوعيون جميـع الأقليـات المحيـط بهـا «الاتحاد السوفييتي» ومنهم الأقلية الكوردية، على الكتابة بالخط الكيريلى

الذى تكتب به اللغة الروسية. وكذلك كان حال الكُرد فى المنطقة الواقعة تحت سلطة الفرس (إيران) وسلطة العرب (العراق، سوريا) وهو ما أدى إلى اضمحلال مؤقت للمشاعر القومية لدى الكرد، لا سيما أن الخلاف بين الجماعات الكردية المسلحة الموالية لإيران والموالية للعراق اشتد، وأوقع ضحايا كثيرين من الكُرد على يد الكُرد.

وكانت الصحوة الكوردية بالعراق بعد سقوط «صدام» وعقب حصولهم على نوع من الحكم الذاتى والحماية الذاتية، من خلال القوات العسكرية المعروفة باسم .البشمرجة (البشماركة) مما أدى إلى إتاحه الفرصة أمام الكرد لاكتشاف ملامح قوميتهم وشخصيتهم الحضارية. فظهرت دراسات تؤكد عراقة القومية الكردية ودورها الحيوى فى تاريخ المنطقة، وفى تطور آدابها. حتى إن بعض الدراسات المعاصرة جدًا، تقول إن الثقافة العربية عرفت النصوص الأدبية الشهيرة (ألف ليلة وليلة، كليلة ودمنة، السندباد البحرى...) ليس من خلال الترجمة عن اللغة الفارسية مثلما يعتقد معظم الناس، وإنما عن طريق الترجمة إلى العربية من النصوص التى كانت مكتوبة باللهجة الكوردية.

ومع استقرار كُرد العراق، وتوقف الصراع المسلح بين الجانبين الإيرانى والعراقى من الكرد، وفشل تركيا الأردوغانية فى قمع ملايين الكرد فى "آمد" و"ديار بكر" صار المجال مفتوحًا أمام انتعاش الحلم القومى الكردى باستقلال دولة كردستان، بعد طول تشظٍ وظلمٍ واستبداد. ولكن. ولأن تنامى هذه الروح القومية وازدهار فكرة القومية الكردية، يتعارضان مع مصالح عديد من القوى الدولية التى أقلقها هذا الانتعاش، بُعثت «داعش».

فتح كوردستان

حين طفرت فجأة الأخبار والتقارير العجيبة عن الظهور المفاجىء لتنظيم داعش، كان من بين البيانات العجيبة التى تناقلتها الصحف ووسائل الإعلام العالمية والعربية، بيان داعشىٌ نُشر يوم الثالث من الشهر التاسع (أغسطس، آب) يقول ما نُصه: أعلن تنظيم داعش أنه نجح فى فتح الشريط الحدودى بين محافظة «نينوى» التى يسيطر عليها، ومحافظة «دهوك» التابعة لإقليم كردستان العراقى، وأعرب التنظيم عن أمله فى استكمال فتح المنطقة الكردية بالكامل.

وفى نص هذا «البيان» الخالى من التبيان، وردت كلمة «فتح» مرتين. من دون أن يتوقف أحد عند دلالة هذه الكلمة، التى تعنى لغة واصطلاحًا: الدخول العسكرى بالدين الإسلامى إلى أرض جديدة، والسيطرة عليها بالحرب أو بالاستسلام لتفادى القتال. وهو الخيار الذى يُعرف بحسب المصطلح القديم بتعبير: عنوة أو صلحًا.

وربما كانت وكالة أنباء الأناضول (التركية) التى أطلقت هذا البيان، أو بالأحرى هذا التصريح الداعشى، معذورة فى عدم وقوفها أمام دلالة كلمة «الفتح» التى وردت فى النص مرتين. معذورة، لأنها فى خاتمة المطاف وكالة أنباء أعجمية (غير عربية) أما العجب العجاب فهو حال إعلامنا العربى الذى لم ينتبه إلى أن كلمة «الفتح» لا يصح استعمالها إلا للدلالة على دخول المسلمين إلى «ديار الكفر» والاستيلاء عليها عنوة أو صلحًا. وكيف يصح ذلك، إذا كانت كوردستان كلها مفتوحة أصلًا منذ قرون طوال من الزمان، وغالبية سكانها

مسلمون على المذهب السنى ذاته، الذى تزعم جماعة داعش أنها تنتسب إليه.. فكيف يجوز استعمال كلمة "الفتح" كبديل للبلطجة والإجرام !

وَمَّر الأمر على الناس فى بلادنا مثلما تمر أمور أخرى كثيرة، إذ لا يهتم أحد بضبط دلالة مفرداتها أو الاندهاش من الخلط والتخليط المريع فى معانى الكلمات. وهذه على أية حال، ليست حالة فردية وإنما هى المعتاد عمومًا فى بلادنا التى صار أهلها كغثاء الطير والسائمة، يتواصلون بالأصوات الصادحة وليس باللغة منضبطة الألفاظ، محددة المعانى المرتبطة بالمفردات. فترانا نقول «الدعاة، الداعية» لمن يقوم بوعظ الناس، دون انتباه إلى أن "الدعوة" إلى الإسلام لا تكون إلا فى مجتمع غير مسلم. أما داخل المجتمع الإسلامى، فلا يصح أن يقال عن مثل هذا العمل دعوة، لأنه ببساطة «وعظ». وترانا نكره كلمة «التبشير» ونعتبرها هجومًا على الإسلام، فى الوقت الذى نستعمل فيه كلمة «كرازة» ونكررها كثيرًا، دون انتباه إلى أن الكلمة تعنى حرفيًا: التبشير! وقد أردت لفت الأنظار إلى خطورة هذه الأمور، فى كتاب أصدرته قبل عدة سنوات تحت عنوان «كلمات، التقاط الألماس من كلام الناس» غير أن الأثر ظل محدودًا، مع أن الكتاب طبع عدة مرات. لأن الناس فى بلادنا قليلًا ما يسمعون،وإن سمعوا فهم قليلاً ما يتدبرون أو يهتمون بهذه الأمور التى يظنون أنها كماليات وترف ثقافى. مع أنها فيما أرى، أخطر الأخطار التى تواجه العرب الحاليين. وتهددهم بالاندثار التام.

* * *

من بعد ذلك، نقول: لا يمكن بحال من الأحوال تسمية الاقتحام الداعشى المسلح لكردستان «فتحًا» لأنها بالفعل «مفتوحة» إسلاميًا منذ بداية زمن الفتوحات قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان.. قد نسمى هذه الحروب الداعشية استهبالًا (بالمعنى الفصيح للكلمة: اغتنام الفرص) أو بلطجة (بالمعنى التركى للكلمة: حامل البلطة) أو إجرامًا عتيدًا (بالمعنى القانونى والإنسانى لهذه الكلمة) أو تنفيذًا لخطط دولية تشاركت فيها المصالح الدولية لضمان إبقاء الكرد فى حالة التشظى، خشية قيامهم بتأسيس دولة تقتطع من العراق وسوريا الشمال، ومن تركيا الجنوب الشرقى، ومن إيران الشمال الغربى، ومن أمريكا فرصة النهب المنظم للنفط. يمكن تسمية الحرب الداعشية بأى لفظ من هذه الألفاظ «الاستهبال، البلطجة، الإجرام» أما لفظ الفتح، فهو لا ينطبق من قريب أو بعيد.. فمتى كان "الفتح" الفعلى لهذه النواحى و الأنحاء الكوردية؟

* * *

وابتدأ «فتح» كوردستان فى زمن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، وتم فى زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان (وبالمناسبة، فليس هناك بعد الخلفاء الأربعة للنبى، خلفاء، وإنما هناك حكام توارثوا الحكم الذى صار ملكًا عضوضًا).. وكان سكان كوردستان عند ظهور الإسلام، يدينون فى معظمهم بالملة الأزيدية المستوحاة من الديانة الفارسية القديمة المعروفة باسم الزرادشتية (نسبة إلى زرادشت) التى تقوم على الاعتقاد بوجود قوتين أعظم: النور والظلام يزدان وأهريمان الله والشيطان.. وكان الكورد بحكم الجغرافيا يسكنون فى المنطقة الواقعة بين الفرس واليونان، وهى منطقة الصراع القديم الذى استمر

قرونًا وكان يجرى فى وقت ظهور الإسلام بين الفرس والروم (الرومان المتأخرون، البيزنطيون).

ومعروف أن دولة الإسلام المبكرة انتشرت على أنقاض دولتى فارس وبيزنطة، ومن هنا كان لابد من سيطرة المسلمين على النواحي الكوردية لتكون منطلقًا لهم نحو فارس، وتأمينًا لهم من الجيش البيزنطي. ولذلك أرسل الخليفة عمر بن الخطاب جيشًا بقيادة «عتبة بن فرقد» سنة عشرين هجرية، فقاتل أهل «نينوي» ودخلها عنوةً، حسب ما يقول البلاذرى فى كتابه.. فتوح البلدان. بينما دانت الأنحاء الكردية الأخرى لسلطة المسلمين صلحًا، وارتضوا دفع الجزية.

وامتدت الفتوحات الإسلامية فى زمن الخليفة عمر، فشملت المناطق الكردية (تكريت، كردى، المرج...إلخ) ويقال إن القائد المسلم "عياض بن غنم" هو الذى أتم فتح كردستان، حتى وصل بالفتوح إلى «آمد». بيد أن الكرد ثاروا على سلطة المسلمين فبعث لهم الخليفة عثمان جيشًا بقيادة أبى موسى الأشعرى، فانطلق إلى الأنحاء الكردية فى البصرة فأخضعها مجددًا، وأعاد كردستان إلى نطاق الدولة الإسلامية الوليدة.

والمصادر التاريخية قليلًا ما يتحدث القديم منها عن فتح كردستان، إلا بشكل إجمالي، فلا نجد إلا شذرات قليلة عند البلاذرى وبعض المتأخرين عليه زمنًا. لكن هناك دراسة معاصرة قام بها الباحث المؤرخ د. فرست مرعى، ونشرها بعنوان يفصح بوضوح عن محتواها «الفتح الإسلامى لكردستان» وفى هذا الكتاب ذى الفصول الأربعة، يستعرض المؤلف أصول الكرد وأحوالهم

وقت دخول الإسلام، ومعركة «جلولاء» التى دانت بعدها كردستان للمسلمين.
لم يؤكد الكتاب أن دخول الإسلام إلى كردستان لم يكن غزوًا عسكريًا غشومًا، بقدر ما كان تحريرًا للكرد من حالة الصراع السلطوى المرير، التى طالما امتدت وعانى منها الكورد قبل مجىء المسلمين. وهو ينكر الادعاءات القائلة أن الكورد أجبروا على دخول الإسلام، من واقع انتمائه الإسلامى الذى طالما اعتز به الكورد الذين أسهموا خلال الزمن الإسلامى المديد، إسهامًا ملحوظًا فى صياغة التراث العربى.

المرأة الكوردية.

فى غمرة الأهوال الداعشية التى انتشرت ونُشرت أخبارها على نطاق واسع، تناقلت وسائل الإعلام العالمية والعربية وقنوات التواصل الاجتماعى صورة مريعة لشاب داعشى مهووس يضحك كالمخبولين وهو يعلق على إحدى يديه رأسًا مقطوعًا لامرأة كوردية حسناء الوجه، طويلة الضفائر، باسمة. وبيده الأخرى يرفع إصبع السبابة بعلامة التوحيد! وبالطبع أثارت الصورة الجالبة للهم كل مشاعر الاشمئزاز والتقزز والغم فى نفوس الناس شرقًا وغربًا. وجاءت فى تفسيرها وتفصيل خبرها أقاويل عديدة، منها أن الدواعش يسعون لنشر الرعب فى الأنحاء تمهيدًا لاجتياحها دون مقاومة من أهلها، وهو الأسلوب الذى اتبعه المغول قديمًا عند اجتياحهم لأنحاء العالم الإسلامي.. ومنها أن دولة الإسلام فى العراق والشام «داعش» تريد تحذير النساء بأنهن إذا لم يستسلمن للأسر والسبى وإدفاء فراش «المجاهدين» وتلبية شهواتهم الهمجية، فسوف يتعرضن لهذا المصير الشنيع البشع.. ومنها أن المرأة مقطوعة الرأس اسمها "ريحانة"

وكانت إحدى المقاتلات الكورديات اللواتى يدافعن عن بلدة عين العرب «كوباني» الكردية، المسلمة السنية، ضد شراذم الدواعش.. ومنها أن النساء الكورديات قد تعهدن بقتل أنفسهن، إذا ما أحدق بهن الهم الداعشى وأراد المجاهدون المسلمون فى سبيل الله وسبيل النكاح، الاستيلاء على أجسادهن وبيعهن بسوق النخاسة.

بعد ذلك بأيام جاءنا هَمٌّ جديد من إيران، ملخصه أنهم شنقوا هناك فتاة أخرى، اسمها هى الأخرى «ريحانة جباري» اعتدى عليها بالاغتصاب حيوان يعمل بالمخابرات الإيرانية، فقتلته. وقيل إن الفتاة المشنوقة من أهل السنة، والأرجح أنها كردية، لأن لقب «الجباري» هو اسم مشهور لعشيرة كردية يصل عددها إلى عدة ملايين، معظمهم يسكنون بالعراق حاليًا وبعضهم فى غير العراق، وهم جميعًا ينتمون إلى جد واحد كان اسمه "عبدالجبار" فصار يقال للواحد منهم: جبارى.

ومن هذا «الهم» نعود إلى «الهم» الأول، حيث اشتهر عن الكرديات المقاتلات المتصديات للدواعش هذه الأيام، أنهن لا يقعن فى الأسر. بمعنى أنهن يقاتلن حتى الرمق الأخير، ويفضلن الموت على الوقوع فى أيدى الدواعش، كيلا تهان الواحدة منهن ويستعمل جسدها فى الأسر «السبى» استعمالاً همجيًا. بعبارة أخرى، تمتاز المرأة الكردية باعتداد شديد بأنوثتها، يعوق قبولها بالخزى الذى ينتظر الأسيرات.. بعبارة أوضح: المرأة الكردية حرة.

فلماذا تمتاز المرأة الكردية بهذه الصفات؟ للإجابة عن ذلك علينا الرجوع إلى التاريخ وملاحظة أثر الجغرافيا، والانتباه إلى طبيعة الخصوصية الثقافية للكورد المسلمين، السنة.

* * *

باستثناء الكورد الذين اضطروا إلى الهجرة من موطنهم الأصلى، أعنى تلك المنطقة الشاسعة المعروفة باسم «كوردستان» .فإن العشائر الكردية تقيم اليوم، مثلما كانت تقيم منذ زمن قديم، فى منطقة المرتفعات الجبلية والسهول الخضراء المحيطة بها. وسكان تلك الأماكن عمومًا، من الكرد أو غيرهم، يمتازون بالميل إلى المحافظة لا الانفلات، والاعتزاز بالشرف لا التساهل فيه. على عكس سكان الصحراوات المجدبة والمدن الصاخبة المزدحمة، الذين لا يكترثون كثيرًا بالنزوع المحافظ، وبقدسية الجسد، وبتمحور السلوك العام حول مفاهيم العزة والشرف. أو بتعبير أدق: غالبًا ما يكون البدو الأقحاح وقاطنو المدن الكبيرة، أكثر تساهلاً من نظرائهم الساكنين فى الجبال والمناطق الخضراء. هذا من وجهة نظر الجغرافيا، وانعكاسها على السلوك العام.

ومن ناحية التاريخ السحيق لمنطقة كوردستان، يؤكد الباحثون أن أسلاف الكورد كانوا يعيشون قبل آلاف السنين فى مجتمع أمومى، يتمحور حول تقديس الأم العظيمة والأنوثة المؤلهة.. يقول "د. جمال رشيد" فى الجزء الثانى من كتابه الموسوعى «ظهور الكورد فى التاريخ» ما نصه: لعبت المكانة الاجتماعية للمرأة فى كوردستان دورًا كبيرًا فى رسم التصور الدينى وفى ولادة الأسطورة الأولى. فمن جسدها تنشأ حياة جديدة، ومن صدرها ينبع حليب الحياة، ودورتها الشهرية المنتظمة تتبع دورة القمر، وخصبها هو خصب

الطبيعة. فوراء كل ذلك أنثى كونية عظمى، وهى منشأ الأشياء، عنها تصدر الموجودات وإلى رحمها يؤول كل شىء.

ثم يشير الكاتب إلى أن المجتمع الكوردى القديم قبل آلاف الأعوام، كان يعبد الإلهة «شاووشكا» التى عرفت أيضًا باسم «نيني» وباسم «إنانا».. وقد سميت مدينة «نينوي» باسمها، مقابل مدينة أوروبيللوم «أربيل». وعبدها أيضًا بهذا الاسم سكان مدينة شموخا، فى جنوب شرق «ديار بكر» الحالية[1].

وبطبيعة الحال، فإن تأليه الأنوثة فى زمن تأسيس الحضارات، لم يقتصر على منطقة سكان كردستان. فهذا ما رأيناه فى مهاد الحضارة الإنسانية جمعاء: مصر، العراق، اليونان! قبل أن تقوم الجماعات الإنسانية الأحدث، تحت وطأة النزعات التوسعية العسكرية الغشوم بإزاحة الألوهة المؤنثة وإحلال الإله الذكر «رب الجنود» فى مكانها، على النحو الذى عرضت له فى روايتى: ظل الأفعى.

* * *

وقد استمرت النزعة الأمومية فى المجتمع الكُردى خلال تطوره الطويل، وتحول تأليه الأنوثة إلى تقديس للمرأة وإعلاء لمكانتها. ولذلك، ظهرت فى تاريخ كردستان نساء قائدات قمن برئاسة وتوجيه العشائر الكُردية، كان منهن: أرملة غلام شاه خان، نسوة أسر الهكارى[2]، الحاكمات، عادلة خاتم.. وقرة فاطمة، التى قادت فرسانها واستولت على القسطنطينية سنة ١٨٥٤ الميلادية.

---

(١) ديار بكر، منطقة كردية تقع داخل حدود تركيا.

(٢) عشيرة كردية مشهورة منذ مئات السنين .

وفى انعطافة حادة، ودالة، يقول صاحب موسوعة «ظهور الكورد فى التاريخ»: إن انتشار مبادئ الإسلام فى المجتمع الكوردى، أدى إلى تسرب بعض أعراف المجتمعات العربية إلى الكورد، لكن احتجاب المرأة أمام الرجل كما أراد رجال الدين الإسلامى، لم يتحقق فى المجتمعات الكوردية. ولذلك ظل الكورد من بين الشعوب الإسلامية، هم الأكثر تسامحًا وتفتحًا تجاه المرأة، واحترامًا لحريتها الشخصية. وقد لاحظ الرحالة ما نلاحظه اليوم من سمات عامة للمرأة الكوردية، فهى من حيث الشكل غير محجبة «لا ترتدى الحجاب ولا النقاب» ومن حيث التفاعل الإنسانى غير محجوبة عن الرجال، ولا يفرض عليها ارتداء ملابس معينة، وتشارك الرجال فى الحوار: «ومع كل الحرية التى تتمتع بها، فإنها تحافظ على شرفها بكل ما أوتيت من قوة، فالخوف المنتشر بين الأرمن وادعاء العفة المنتشر بين الأتراك العثمانيين، لا نجدها عند الكورد».. ولم يتعرض الكاتب للمرأة العربية لأن كتابه، فيما أظن قد أعدت مادته أثناء حكم صدام حسين! وإن كان قد نشر بعد سقوطه عن حكم العراق بالطبع، لأن كتابًا عن الكورد فى زمن «صدام» كان سببًا كافيًا لقتل مؤلفه.

وبعد إيراد بعض الشهادات التى قدمها الرحالة الأوروبيون وزوار كوردستان خلال القرنين الماضيين، من أمثال "بيلابترو، مينورسكى، سون، رامبو، إدموندس" يأتى التأكيد على أن المرأة الكوردية أكثر استقلالاً من أخواتها العربيات والتركيات والفارسيات.. ثم يقول المؤلف: وللأسف، فإن سياسة حزب البعث اللاأخلاقية فى كوردستان الجنوبية، خلقت حالة مغايرة لطبيعة المجتمع النسوى، فدفعت بعض الكورديات إلى استعمال الحجاب، وهو

القماش الذى كان يستر المرأة العبرية.. وهى الظاهرة التى لم تتعودها النساء الكورديات خلال التاريخ.

*   *   *

وختامًا، وحسبما تؤكد المشاهد الجارية الآن فى النواحى الكردية بالعراق وسوريا، فإن عمليات التدنيس لقداسة «الأنثى» لم تنجح تمامًا فى طمس هويتها الراسخة عند الكورديات.. اللواتى يحملن السلاح مستهينات بالموت فى سبيل الدفاع عن الأرض والعرض، اللواتى يفضلن الانتحار بالطلقة الأخيرة، على الاستسلام للسبى والتدنيس الهمجى لمعنى الأنوثة، على يد الدواعش الذين يستعملون الدين لتدمير الدنيا، والسماء لتخريب الأرض، والذكورة البكماء لطمس بهاء الأنوثة.

ويبقى هنا ما وعدنا به سابقًا من إيراد قصيدة "محمود درويش" المعروفة بقصيدة "كوردستان" التى كانت بمثابة بكائية تندِّد بما فعله حزب البعث العراقى من ويلات، وجرائم ضد الإنسانية ومذابح، فى حق الكُورد الساكنين شمال العراق سنة ١٩٦٣. والقصيدة غير موجوة فى دواوين محمود درويش المطبوعة، إذ حذفها الناشرون تلافيًا لنقمة الرئيس العراقى الذى كان لا يتورَّع عن المريع من الأفعال الانتقامية.. تقول القصيدة :

(١)

معكم،

معكم قلوبُ الناس

لو طارت قذائفُ فى الجبالِ.

معكم عيونُ الناس،

فوق الشوك تمشى، لا تبالِ.

معكم عبيدُ الأرض

من خصر المحيط، إلى الشمالِ

معكم أنا، معكم أبى،

أمى،

وزيتونتى، وعطرُ البرتقالِ

معكم عواطفنا،

قصائدنا،

جنودًا فى القتالِ

يا حارسين الشمس

من أصفادِ أشباه الرجالِ

ما مزقتنا الريحُ

إنَّ نضال أُمتكم، نضالى

إن خرَّ منكم فارسٌ،

شُدَّتْ على عُنقى حبالى.

(٢)

تحيا العروبة

هل خَرَّ مهرك يا صلاح الدين ؟

هل هوتِ البيارق؟

هل صار سيفك،

سيف مارق؟

من أرض كوردستان،

حيث الرعبُ يسهرُ والحرائق

الموتُ للعمالِ إن قالوا :

لنا ثمنُ العذابِ

الموتُ للزُّرَّاع إن قالوا:

لنا ثمرُ الترابِ

الموتُ للإطفال إن قالوا:

لنا نورُ الكتابِ

الموتُ للإكراد إن قالوا:

لنا حقُّ التنفُّسِ

والحياة.

ونقول بعد الآن : فلتحيا العروبة

مُرِّى إذن فى أرض كوردستان

مُرِّى يا عروبة !

هذا حصاد الصيف،

هل تبصرين؟

لن تبصرى، إن كنتِ

من ثُقبِ المدافع تنظرين

يا أُمتى،

هجمتْ على تاريخك الإنسان

أشباهُ الرجال.

باسم العروبة، يستباح الدم

تحكمك النصال.

بعثت لمزبلة الزمان

أخسّ ما عرف الزمان،

من الزمان.

باسم العروبة،

يطعن التاريخ من شطآن دجلة

والفرات.

يا أُمتى، ألم يكفنا

أنًا براءُ منهم

وطابورهم،

أنًا براءُ.

ألقى لمزبلة الزمان،

أخسّ ما عرف الزمان

ألقى عدوك يا عروبة

نقول بعد الآن :

فلتحيا العروبة

(٣)

يا شهرزاد،

الليلُ يفترس الصباح

وحقول كوردستان،

موسمها جراح.

الحبُّ ممنوعٌ، وهمسُ الجار

لا شيء مباح.

إلا دم الأكراد

نفط الموقدين

مصباح عارهم بموت الآخرين.

يا شهرزاد

صدأت أساطير البطولة فى لياليك،

الملاح.

والذكريات البيض، والمُهر الذى ركب

الرياح.

والحب والأمجاد والسيف الذى مَلّ

الكفاح.

عارُ على بغداد، ما فيها

مباح.

إلا دَمُ الأكراد، فى المذياع

فى صحف الصباح.

أنّا أبدناهم !

و تفترُّ الذئابُ،

وتبتسم.

أنّا زرعنا أرض كوردستان،

لحدًا عاريًا من فوق لحد

أنّا زرعناهم جماجم لا تعد.

يا شهرزاد

الليل يفترس الصباح،

والحبُّ ممنوعٌ، ومخدعك الوثير

ملقى، على أقدام سيدك الحقير

ودماءُ كوردستان تُغرق سافيحها

واللاعبُ المأفون بالنيران،

سوف يموت فيها يا شهرزاد

ما مات إلا الموقدون

مصباح ليلهم، بزيت الآخرين

فإلى اللقاء مع العصور القادمة

فى قصة العصر

الذى صنعته كفُّ الثائرين.

عبرانيات

المواجهة الثقافية مع إسرائيل

فى منتصف التسعينات من القرن الماضى، العشرين، كانت عشرون سنة قد مرت على توقيع اتفاقية كامب ديفيد للسلام بين مصر وإسرائيل. وخلال هذه السنوات العشرين، كانت مصر ترتخى يومًا من بعد يوم تحت ظلال الانفتاح الاقتصادى، وغياب القضية القومية، ودبيب الفساد فى قلب الوطن وأطرافه، والتدهور السريع فى التعليم والتثقيف العام.. وفى التوقيت ذاته كانت إسرائيل تمضى قدمًا على درب التطور التكنولوجى، والتطوير المعرفى فى شتى المجالات.

وكان الخطاب السياسى والإعلامى العام فى مصر، لا يكف عن تأكيد التزامه بالسلام، وإشاعة ما كان يسمى "ثقافة السلام" وهو تعبير مطاطى لم يعرف أحدٌ فحواه بدقة، ولم يهتم أحدُ بتعريفه على نحوٍ جامعٍ مانع. وفى ذاك الوقت ارتضى المثقفون والمبدعون المصريون، بما كانوا يسمونه "رفض التطبيع" واستراحوا بذلك عن الخوض فى أى أمر يتعلق بإسرائيل، من قريب أو بعيد. وحين ذهب الكاتب المسرحى "على سالم" لزيارة لإسرائيل، وكتب رحلته فى كتاب صغير. اجتمع ضده الجميع وأسقطوا عضويته فى "اتحاد كتاب مصر" وتجافوا عنه فعاش مهمشًا، مذمومًا مدحوراً، حتى وفاته العام الماضى ٢٠١٥.

وأيامها نُشرت تقارير اقتصادية تشير إلى البون الشاسع بين الحالة الاقتصادية فى مصر و مثيلتها فى إسرائيل، وتؤكد إلى أن مستوى دخل الفرد فى إسرائيل يفوق بعشرين ضعفًا مثيله فى مصر. ونُشرت تقارير أخرى أخطر، تفضح الفارق الشاسع بين البلدين فى ميزانية البحث العلمى، حيث تصل فى إسرائيل إلى نسبة أربعة بالمائة من الموازنة العامة، وفى مصر أربعة من عشرة بالمائة يذهب معظمها مرتبات للموظفين فى وزارة البحث العلمى.. فغمرنى قلق عميق على حالنا العلمى والمعرفى، لكننى لم أجد له صدى عند مفكرينا ومثقفينا ومبدعينا الذين نسوا مع الأيام، أن السلام كثيرًا ما يكون فرصةً لالتقاط الأنفاس، وأن المواجهة بين الأمم قد تأخذ أشكالًا أخرى غير الحرب.

ولما أُعلن عن " السوق الشرق أوسطية " رأيتُ من واجبى التنبيه إلى الوجوه المهملة من سُبل المواجهة مع إسرائيل، ومن أهم هذه الوجوه: المواجهة الثقافية..ونشرتُ آنذاك بجريدة الأهرام مجموعة مقالات، ضاع بعضها ولم أستطع العثور عليه، ووجدت أربعةً منها هى تلك التى ستقرأها فى الصفحات التاليات لاستعادة ما فات بعد طول إهمالٍ للأمر، ودوام للغيبوبة والرضا بترديد الشعارات الجوفاء الطنّانة، من دون احتياج لبذل الجهد من أجل الفهم أو استشراف المستقبل. وحين نُشرت المقالات فى صفحة الثقافة بالأهرام، كانت آنذاك بمثابة التحليق خارج السرب، أو الغناء المنفرد. حتى إن معظم الناس كانوا يستغربون اختيارى الكتابة فى هذا الموضوع، ويلومون الجريدة على نشره فى غمرة الدعوة الحكومية لترسيخ ثقافة السلام.. كأن الفهم والانتباه، نقيض السلام!

وتجب الإشارة إلى أن هذه المقالات، منشورة هنا بنصها المنشورة به قبل عشرين عامًا، دون أى تغيير.. حفاظاً على الجانب "التوثيقى".

صيغة "سعيدة سلطان"

لا شكَّ فى أن غالبية قرَّاء هذه الصفحة، من صفوة المثقفين، لم يسمعوا عن (سعيدة سلطان) و لا شك فى أن غالبية شباب مصر ممن راهقوا البلوغ، سمعوا عنها واستمعوا لها. ولبيان الأمر: أما سعيدة سلطانة فذلك اسمٌ فنىٌّ لشريط كاسيت يباع منذ شهور سرًّا، على نطاقٍ واسع، وسعره المرتفع يتراوح بين الخمسين والثلاثين جنيهًا للنسخة الأصلية(١). وإن كان شبابنا قد تغلَّبوا على مشكلة ارتفاع سعره، بأن استنسخوه لبعضهم بعضاً. والشريط يضم مجموعة أغنيات لفنانة يهودية اسمها "دانا" يقال إنها كانت رجلًا ثم أُجريت لها جراحة حوَّلتها لأنثى. ومع ذلك فصوْتُ المغنِّية شديد الأنوثة، وإيقاعات موسيقاها متطوِّرة صاخبة من النوع الذى يفضِّله اليوم معظمُ الشباب، والألحان مشهورة فى ألبومات لِفرقٍ عالمية وفى تراثنا الغنائى المصرى، والكلمات بلغاتٍ مختلفة: عربية وعبرية وإنجليزية.. إلخ، وما يجمع بين الأغنيات هو الفُحش التام الذى يصل فى بعض الأحيان، إلى إصدار تأوُّهاتٍ فراشية لامرأةٍ تحترف فى البغاء.

وقد اتخذ الشريط طريقه من إسرائيل (ابنة العم المجاورة ذات المفاتن) إلى مصر مباشرةً. ومن وقت نزوله الأسواق الرقابة تصادره، ويتزايد فى نفس الوقت إقبال الشباب عليه. فلا عزاء للرقابة و لا عبرة بالمصادرة.. والآن يأتى

(١) كان السعر المعتاد آنذاك، ثلاثة جنيهات لشريط الكاسيت .

السؤال: ما هو الداعى لإثارة هذا الموضوع، فى صفحة (الثقافة) بالذات، مع علمى بأن الصفحة مشغولةٌ الآن بقضيةٍ على درجة كبيرة من الأهمِّية، أعنى قضية المنهج فى العلوم الإنسانية؟[1].

إن ما دفعنى لتناول هذا الموضوع ليس شريط الكاسيت فى ذاته، ولا عهر أغانيه، ولا انتشاره العجيب بين الشباب، ولا جهل (العقلاء) به رغم ذيوع أمره. وإنما لأن سعيدة سلطانة فى وعى المتأمِّل: صيغةٌ جديدة تجلَّت فى المواجهة الثقافيه بين مصر والعرب عمومًا، وبين إسرائيل.. وللأمر تفصيل:

كما هو معلوم فإن الثقافات المختلفة إذا تماست دوائرها فهى تنزع بطبيعتها نحو (التفاعل) الذى يتخذ صورًا عديدة، منها صور التكامل، أو الغزو المكتسح للثقافة الأهش، أو المواجهة بين ثقافتين متضادتين. ومن المعلوم أيضًا أن المواجهة العسكرية بين مصر وإسرائيل لم تعد مطروحة (الآن) وأن بعض المواجهات الأخرى – فى الاقتصاد مثلًا – يتم الترتيب لها على نحو يعرفه المتخصصون، تحت مسمًّى: السوق الشرق أوسطية.. ومن المعلوم كذلك أنه لا يمكن عمل ترتيبات اقتصادية دون مراعاة الجانب الثقافى، فللثقافة شأنٌ لو تعلمون خطير، ونحن نذكر كيف ظلَّت فرنسا تداور وتناور عند دخولها فى اتفاقية الجات حتى حصلت على امتيازاتٍ ثقافية (فرانكفونية).

---

(١) قبل كتابتى لسلسلة مقالات "المواجهة الثقافية" كنتُ منهمكًا، مع غيرى من الأساتذة المتحمسين فى مناقشة القضايا المتعلقة بطبيعة العلوم الإنسانية ومنهجها، عبر مجموعة من المحاضرات المنشورة بصفحة الثقافة بالأهرام، ومجموعة محاضرات متتالية كانت تقام فى قصور الثقافة. وقد أصدرت آنذاك، فى سلسلة "الفلسفة والعلم" التى كنت أشرف عليها وتصدر عن "هيئة قصور الثقافة" كتاب : مشكلة المنهج فى العلوم الإنسانية.

ومن جملة هذه (المعلومات) ننتهى إلى أنه لابد لنا فى المرحلة القادمة ، بل الحالية، من مواجهةٍ ثقافية مع إسرائيل.. فهذا أمرٌ طبيعى بالغ البداهة، ومن بالغ البلاهة إنكاره أو التشكيك فيه.

ومع أن (المواجهة) هذه ليست جديدة تمامًا. إلا أن الجديد فيها الآن، هو تلك الدرجة العالية من التنظيم. ففيما سبق، كانت تجلِّيات المواجهة تأخذ شكلًا فرديًّا من الطرفين، ففردٌ منا مثل يوسف إدريس، يذهب إلى مؤتمرٍ بالخارج فيكتشف أن منظِّميه من اليهود، فينسحب.. وفردٌ منهم مثل مناحم بيجين، يتبجَّح أمام الهرم الأكبر قائلًا: إن أجداده هم الذين بنوه، فننزعج.. تلك هى الصور – أو أمثلة من الصور –الفردية، التى اتخذتها المواجهة الثقافية فيما مضى، أما الآن (وفيما يأتى) فالمواجهة صارت ذات صبغةٍ مؤسسية منظمة، تستند إلى مفهوم التخطيط والمعلوماتية، وسائر المفاهيم المعاصرة لآليات العمل الدولى الاحترافى الدقيق.

من هنا نأتى لتحليل صيغة "سعيدة سلطانة" المطروحة من الجانب الآخر على صعيد المواجهة الثقافية، وهى بالطبع ليست الصيغة الوحيدة ولا الأخيرة، ليكون هذا التحليلُ محاولةً لفهم: كيف تفكِّر مؤسَّسةُ الجانب الآخر، وكيف توظِّف الفهمَ، وكيف نفهم نحن وظيفةَ التفكير.. بعبارةٍ جامعة: يسعى هذا التحليل إلى إدراك آليَّةِ العمل فى المواجهة الثقافية.

أولًا: تعكس صيغة سعيدة سلطانة وعيًا عميقًا بطبيعة المجتمع المصرى، فصانعو الشريط يدركون أن الممنوع عندنا مرغوب! فيقدِّمون عملًا ممنوعًا يعمل منعه على انتشاره. وهم يدركون مقدار تهميش الجنس فى ثقافتنا،

فيقدِّمون فنًّا ينطق بالمسكوت عنه، بل يصرخ به ذلك الصراخ المهتاج فى الأغنيات. وهم يدركون صعوبةَ الإشباع الجنسى بالشكل المعترف به اجتماعيًا (الزواج) نظرًا لظروفٍ اقتصادية نمرُّ بها، فيقدِّمون عملًا تهييجيًا يقود بالضرورة إلى سلوكياتٍ انحرافية لدى الشباب، وقد يؤدِّى لجرائم كالاغتصاب[1]. وهم يدركون أنَّ موجة المد الدينى آخذة فى الانحسار، بعد ما كان من أمر تلك الجماعات التى أذاقتنا الويلات باسم الدين. فيستغلُّون ذلك الفراغَ الذهنى لدى الشباب، بتوجيهه نحو الجنس الذى هو ميَّالٌ بطبعه إليه.. وتلك جميعًا مظاهر توظيف (الإدراك) فى عملية المواجهة الثقافية، فما الذى ندركه نحن عن طبيعة المجتمع الإسرائيلى الآن؟ أُكررِّ: المجتمع الإسرائيلى الآن. ولا أقصد الصورة التقليدية عن اليهوديِّ التائه، ذى الأنف المحدبة.

ثانيًا: تعكس صيغة سعيدة سلطانة بقوة، فكرة الاستفادة من كافة مظاهر التحضر المعاصر فى المواجهه الثقافيه. فالشريط لا يقدِّم عملًا جنسيًّا فجًّا تعافه النفوس، وإنما يقدِّم العمل ممزوجًا بمقتضيات العصر من ألحانٍ سبق للآذان أن اعتادت سماعها، ومن تقنياتٍ عالية فى وسائل التسجيل الصوتى والتوزيع الموسيقى، ومن تنويعٍ فى اللغات ينسجم مع فكرة العالمية المطروحة الآن، فبعض الأغنيات تمزج بين العربية والإنجليزية، فالمرأة تقول مثلًا: "أنا أقول لك NOW أنت تقول لى HOW ..أنا العروسة.. إلخ" وتلك جميعًا سمات المُعَاصَرة، فى عملية المواجهة الثقافية المعاصِرة.

(١) فى النصف الثانى من التسعينات، كانت حوادث الاغتصاب هى خبرٌ شبه يومى فى وسائل الأعلام المصرية.

ثالثًا: تعكس صيغة سعيدة سلطانة على المستوى الدلالى العميق، واحدةً من أخطر الأفكار بالنسبة لثقافتنا، وإن كانت مقبولةً نوعًا ما فى ثقافة الغرب المعاصر بسبب اختلاف التكوين الحضارى. وتلك الفكرة الخطيرة، بل المدمِّرة ثقافيًا بالنسبة لنا هى فكرة التحوُّل.. فلا أظنُّ أنَّ الاختيار كان عبثياً حين وقع على مغنِّيةٍ تحوَّلت من الرجولة إلى الأنوثة[1]، وليس عبثًا أن تقوم المغنية بتحويل أغنيةٍ شهيرة فى تراثنا الغنائى، أعنى تلك التى تتغنى بالمدعو: "حسن خولى الجنينة " وهى أغنية هادئة مستقرة، إلى أغنية زاعقة هائجة بالعهر. ولا ننسى هنا أن فكرة (التحوُّل) هذه مطروحةٌ بقوة فى الفن ما بعد الحداثى فى العالم الغربى، فقد تحوَّل مايكل جاكسون من لونه الأسود الزنجى إلى اللون الأبيض الوردى، وتحوَّل من مُحبٍّ للأطفال إلى مغتصبٍ لهم. أما المغنية الشهيرة مادونا فالتحوُّل يتخذ لديها صورة أخرى، إذ تغيِّر شخصيتها كل ستة شهور، وتضاجع أفراد فرقتها على التوالى! والخطر هنا أنَّ ثقافتنا عبر مسيرة تكوينها الطويلة احتفت دومًا بالرسوخ والأصالة والثبات، فكانت المواجهةُ بطرح النقيض: التحوُّل.. وهكذا يكون التمهيد لتحويل وعينا باليهود من أعداءٍ، إلى جيرانٍ وأبناء عم وشركاء فى السوق.

المؤسسة ضد الفرد

كان تحليلنا السابق منصبًّا على صيغةٍ ذات طابع فنى. أما الآن، فالصيغة التى نعكف على تأمُّلها لاستجلاء حقيقة أمرها وفصل القول فيها، هى صيغةٌ

(١) قيل أيامها إن هذه المغنية اليهودية،التى تجيد العربية، مغربية الأصل.

ذات طابع تنظيميّ إدارى. وغنيٌّ عن البيان أنَّ هذه الصيغ كلها، ما مَرَّ منها وما سيأتى، تتمُّ فى الإطارِ (الثقافى العام) ومن هنا برزت مشروعية تناولها.

وعلى ذكر (الثقافى العام) يجدر بنا التلبُّث عند نقطةٍ دقيقة، لابد من الإشارة إليها قبل الولوج إلى صيغة المؤسسة ضد الفرد التى نسعى هنا لتحليلها. وتلك النقطة الدقيقة هى طبيعة التباين الثقافى، وحدود كل ثقافة على حدة. وهاك بيان الأمر:

قد يعتقد البعض أن المواجهة الثقافية الدائرة اليوم، وغدًا، هى بين ثقافة مصر وثقافة إسرائيل. لكن هذا وَهْمٌ عظيم وجَهْلٌ فادح، لن ينتج عنه إلا الأفكار العرجاء. ذلك لأنه فى الوقت الذى لا يمكن فيه الحديث عن ثقافة (مصرية) دون الوعى بمكوِّنات هذه الثقافة وامتداد روافدها: الفرعونية، اليونانية / الرومانية، القبطية، العربية / الإسلامية. لا يمكن الحديث عن ثقافةٍ (إسرائيلية) دون إدراك لجذور اليهودية التاريخية وللأطراف الجغرافية لفكرة الصهيونية، ودون الوعى بأن إسرائيل الحالية. أعنى إسرائيل الفاعلة والمتفاعلة معنا ثقافيًّا ، هى على نحوٍ ما خلاصةٌ وتلخيص للثقافة الغربية المعاصرة، بكل مكوِّناتها.. المواجهة إذن على ساحة الثقافة ليست بين مصر وإسرائيل، وإنما بين ثقافة هائلة تمثلها مصر، وثقافةٍ أخرى مماثلة فى الهول تمثلها دولة إسرائيل الحالية. نقول هذا حتى لا تبادر الأذهانُ إلى ابتسار الأمر واختزاله فى صورة جزئية، ثم نفاجأ بعد ذلك باتساع الأمر فنغرق فيه[1]

بعد هذه المقدِّمة الضرورية، نقول: أما المراد بصيغة "المؤسسة ضد الفرد" فهو الاختلال الواضح فى عملية المواجهة الثقافية التى تقوم فيها

---

(١) بعد كتابتى هذه الكلمات، بعشرين عامًا، كانت "سنة اليهوديات" ومحاضراتها المتخصصة،التى سارع بعض المعتوهين باتهامها بأنها:محاولة للتطبيع مع إسرائيل!

إسرائيل بالمواجهة من خلال "المنظومة المؤسساتية" بكل ما تشتمل عليه هذه اللفظة من مفاهيم الدقة والتكامل والتخطيط. بينما تقوم مواجهة الثقافة التى ننتمى إليها، اعتمادًا على "التوجُّهات الفردية" بكل ما تنطوى عليه اللفظة من مفاهيم الوقتية والعاطفية وقابلية التشتيت.

والمؤسسة الإسرائيلية تدير عملية "التفاعل" الثقافى، عبر روافد تصب فى مجرى واحد، له ضفةٌ ظاهرةٌ معلنة والأخرى باطنة مستترة. فمن تلك الروافد: الجمعيات المعروفة التى تعمل فى وضح النهار وجوف الليل(كجمعية مقاومة العداء للسامية) والتجمُّعات ذات الطابع الكواليسى التى تعمل من وراء ستار، كاللوبى اليهودى فى أروقة السياسة الأمريكية..وأما المجرى الواحد الذى يصب فيه الرافدان، فهو المصلحة الإسرائيلية العامة فى صورتها السياسية أو العسكرية أو الثقافية. وهو منبعٌ ومجرى ومصبٌ فى نفس الوقت، إذ ينبع الرافدان من إسرائيل، وخير المجرى المشترك يصب فى إسرائيل.

وأما الضفة المعلنة لمجرى النهر، فنراها فى اعتراضات سفارة إسرائيل بالقاهرة على بعض ما تنشره الصحف المصرية والإعلام المصرى ضد إسرائيل، بدعوى أنه ضد التطبيع وسياسة الدولتين. مع أن وسائل الإعلام الإسرائيلية تنشر وتذيع نقدًا، أشد لهجةً لإسرائيل وسياستها. وهناك الضفة الأخرى لمجرى النهر، أعنى الضفة المستترة الخافية التى نستشعر جريانها فى المؤتمرات التى تُعقد فى عواصم العالم الغربى، وفى ترتيبات اللجان التى تمنح الجوائز وترسم طرائق الوصال والمحبة بين البشر، على نحو ما تفعل الجمعيات الماسونية مثلاً[1].

---

(١) صرتُ اليوم اعتقد أن هناك مبالغة فى دور الجمعيات الماسونية، ومبالغة فى استعمالها كأداة ترهيب من اليهود، وأداة تبرير للخيبة التى فيها العرب.

تلك هى حدود (المؤسَّسة) التى تدير المواجهة الثقافية، بل سائر المواجهات المطروحة بحسب الوقت والأحوال، فى إسرائيل. وفى مصر، يقوم بالمواجهة فرادى المثقفين، وكل واحدٍ منهم يعلن عن ذاتيته بقوله: أنا آخر شخص سيذهب إلى إسرائيل.. أنا لا أمانع فى زيارة إسرائيل، لأعرف مَن هؤلاء وكيف يفكرون.. أنا أرفض التطبيع الثقافى.. أنا لا أعترض على التطبيع الشامل إذا التزمت إسرائيل بخطة السلام.. أنا..أنا! وهكذا تواجه الأنا المنفردة المتشظية، برنامج المؤسسة المنضبطة المتكاملة.

والآن، ماذا يمكن للفرد أن يفعل فى مواجهة المؤسسة؟ أظنُّ أن الإجابة واضحةٌ كالشمس: تهرس المؤسسة الفرد!.. ولا يتبادر هنا لأى ذهن أن (الهرس) سيكون بالتصفية الجسدية مثلًا، فهذا أمرٌ ليس الآن أوانه ولا محله. ففى أيام المواجهة العسكرية يكون حل (التصفية) واردًا، كما فعل الموساد حين اغتال الدكتور المشد ليؤخِّر المفاعل النووى العراقى، أما فى أيام المواجهة الثقافية، فالحلول المطروحة ناعمة كالحيات. منها خلخلة اليقين الشخصى بموقف الرفض التام أو الموت الزؤام، ومنها شخللة الجيوب بالجوائز والدعوات السخية، ومنها تشكيك الفرد فى صدق نوايا الأفراد القابعين معه فى نفس الخندق، ومنها.. ومنها.. والنهاية، أن الفرد مغلوبٌ لامحالة من المؤسسة.

وإسرائيل حريصةٌ على عدم قيام مؤسسة ثقافية مصرية بإدارة حركة التفاعل الثقافى لصالح مصر، ولا يزال يؤرِّقها إجماع المثقَّفين المصريين على رفض التطبيع الثقافى، وإصرارهم على الفصل بين ما هو سياسى وما هو ثقافى.مع العلم بأنهما لا ينفصلان. وقد خشيتْ إسرائيل من هذا الإجماع أن

يكون نواةً لمؤسسةٍ ثقافية حقيقية، فاستطاعت بمهارة أن تلتقط بعض "الأفراد" وتجذبهم لجانبها، فهذا يقوم برحلةٍ إلى هناك وذاك يقبل الجائزة الأدبية العليا فى إسرائيل، والآخر يقوم بتسجيل البرامج لإذاعة إسرائيل من أورشليم القدس. وهكذا، وعلى الرغم من أنهم فى النهاية (أفراد) إلا أن الظاهر الموهوم، سيكون: إن المثقفين المصريين منقسمون فى موقفهم من التطبيع الثقافى، وإن هناك (مَنْ) يقبلون كما أن هناك (مَنْ) يرفضون. وعلى هذا النحو يتبدَّد الإجماع العام ولو كذبًا وزورًا، وتنتفى إمكانية قيام مؤسسة مصرية لإدارة فعاليات المواجهة الثقافية مع إسرائيل.

ومصر ينبغى لها أن تحرص على قيام مؤسستها الثقافية، لا أقصد أن يصدر قرارٌ سياسى بتكوين هيئةٍ عليا أو مؤسسة حكومية، وإنما أعنى تنظيم الجهود وجمع الرؤى وضم الشتات، وتنسيق ترسانة الأفكار والمفكرين، ودعم الثقافة الوطنية والإيمان بالتخطيط.. تلك هى المؤسسة، وتلك هى القضية.

الفلسفة بين التهويل والتهوين

قبل الدخول إلى تفصيل هذه الصيغة المهمَّة فى المواجهة الثقافية، الحالية والمرتقبة، بين مصر وإسرائيل. أودُّ الإشارة إلى نقطتين تتعلقان بقضية المواجهة ذاتها، النقطة الأولى أن البعض منا يرى أنه لا خوف إطلاقًا على ثقافتنا من مواجهةِ ثقافة إسرائيل، بل يرون أنه لا ثقافة لإسرائيل أصلًا كى تواجهنا بها! وهذا فيما أرى، زعمٌ خطير وتهوينٌ للأمور قد يفضى بنا إلى حالةٍ من الخدر الذهنى، والاسترخاء العقلى، الذى لن نفيق منه إلا بعد وقوع الواقعة. النقطة الأخرى أن هذه المقالات حول المواجهة الثقافية، إنما هى تحليلات

أولية تستقرئ الواقع وتستشرف المستقبل على نحوٍ إجماليٍّ لا يغنى عن الدراسة التفصيلية للموضوع. ولن نتمكَّن – كعقولٍ مفكِّرة – من فهم عملية المواجهة هذه بتفصيلاتها، دون الاعتماد على قاعدة معلومات إلكترونية تجمع أمام أعيننا ما حدث فى إسرائيل، وما يحدث اليوم، وما يخطِّطون لإحداثه. فبدون هذه القاعدة المعلوماتية سوف تتشتَّت الرؤى وتغيب التفاصيل، فى حين أنَّ الأمر كما أسلفنا، ليس بالهين. فالأساس فى عملية المواجهة، اليوم وغدًا، هو الثقافة. والاقتصاد ثقافة، والسياسة ثقافة، والتخطيط ثقافة، والسياحة ثقافة.. إلخ، وبدون معرفة تامة بالمسألة (الثقافية) لن نتمكَّن من الوعى بكافة المسائل المترتبة عليها، وهى المسائل التى لابدَّ لنا من خوضها مع إسرائيل. فهذا حكم الوقت والزمان، وما يسمى بالنظام العالمى الجديد.

كيف تتم المواجهة الثقافية على صعيد الفلسفة؟ نقول فى البداية: إن الفلسفة هى التجريد النهائى لفكر الجماعة. أو هى كما يقول هيجل التركيب النهائى الذى نكتشف به (المطلق) المركَّب من الروح الذاتية والروح الموضوعية، وعن طريقها يصبح الإنسان متعقلًا وحائزًا للشعور الذاتى ومقدِّرًا لمركزه فى العالم.

وفى الفترة الأخيرة، ومع النشاط الإسرائيلى الواسع فى شتَّى بقاع العالم وشتى مجالات الحياة، نلاحظ الطرح القوى لتعبيرات مثل: الفكر اليهودى، التراث اليهودى، الفلسفة اليهودية.. وتنسال الكتب فى اللغات المختلفة عن (الفلاسفة اليهود) وتنساب فى دوائر المعارف مواد جديدة عن (الفلسفة اليهودية) وهى موادُّ لم تكن قبل عدة سنوات، توجد فى الطبعات السابقة من نفس الموسوعات ودوائر المعارف. وفى كل مناسبة بل ودون مناسبة، تجد

السؤال والبحث حول فلاسفة اليهود، وترد الخطابات "المهذَّبة" من الغرب إلى المجالس العلمية والثقافية بمصر، تسأل عن: برنامج المؤتمر الخاص بالفيلسوف اليهودى..؟ المخطوطات الموجودة لديكم للفيلسوف اليهودى..! الدراسات التى صدرت بالعربية عن الفيلسوف اليهودى.. الخ.

والأمر ما هو إلا تهويلٌ ومماحكةٌ، فالحقُّ أنه لا توجد فلسفةٌ يهودية. حتى تاريخه. صحيحٌ أنه فى التاريخ بعض الفلاسفة ممن انتموا للديانة اليهودية، وهم لا يزيدون فى عددهم عبر التاريخ الإنسانى عن أصابع يدين، وأشهرهم فى تراثنا ثلاثة: فيلون السكندرى، موسى بن ميمون، ابن كمونة الإسرائيلى[1]. والصحيح أيضًا، أن هؤلاء الفلاسفة (اليهود) لم تكن فلسفتهم (يهودية) بقدر ما كانت انعكاسًا لفلسفة الجماعة التى عاش هؤلاء الفلاسفة بينها. فالفيلسوف "فيلون" الذى عاش بالإسكندرية فى زمن الإمبراطور الرومانى "كاليجولا" كان يعبِّر عن فلسفة أفلاطون فى صورتها الجديدة التى تشكَّلت بالإسكندرية، وبفلسفة أفلاطون قام فيلون بتأويل التوراة تأويلًا رمزيًّا يعكس الروح الأفلاطونية بأكثر مما يعكس طبيعة النص التوراتى. وكذلك الأمر فى شأن موسى بن ميمون وابن كمونة، فكلاهما انتمى إلى المحيط الثقافى الإسلامى فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فجاءت فلسفته انعكاسًا لهذه البِنية الثقافية السائدة آنذاك، بكل ما فيها من أفكار الفلاسفة المسلمين ومذاهب علماء الكلام.. فها هو أهم فيلسوف يهودى فى العصور الوسطى (موسى بن ميمون)

(١) كنتُ مخطئًا فى هذا التعميم، فهناك من الفلاسفة المشهورين (اليهود) فى تراثنا كثيرون آخرون، منهم سعيد بن يوسف الفيومى (سعديا جاؤون)، وفى التراث الإنسانى المزيد منهم، أمثال: سبينوزا، كارل ماركس..إلخ

يتلقَّى العلم على يد علماء المسلمين، فقد تلقَّى مباشرة من ابن الأفلح. وتلقَّى من ابن رشد بشكلٍ غير مباشر، حين عكف– كما ذكر ابن ميمون نفسه– على دراسة مؤلَّفات ابن رشد طيلة ثلاث عشرة سنة.

والمطالع لأهم كُتب ابن ميمون (دلالة الحائرين) لا يجد إلا صدى لأفكار فلاسفة الإسلام وعلماء الكلام،خاصة الأشاعرة. ولذلك فحين ألَّف "إسرائيل ولفنسون" كتابه: موسى ابن ميمون، حياته ومصنفاته. وهو الكتاب المنشور بالعربية فى القاهرة سنة ١٩٣٦ م كتب الشيخ مصطفى عبد الرزاق مقدمةَ الكتاب فقال فيها: إن موسى ابن ميمون يعدُّ من الفلاسفة المسلمين.. ثم ذكر العديد من الأدلة المؤيِّدة لذلك.

وحين نشر الدكتور"حسين آتاى" الكتابَ محقَّقًا بتركيا مؤخَّرًا، قال فى مقدمة التحقيق: "إنَّ الدارس للثقافة الإسلامية، حين يقرأ دلالة الحائرين، يرى أن ابن ميمون حتى فى مناقشاته لنصوص التوراة، إنما يصدر عن فكرةٍ وثقافةٍ إسلامية". ثم ذكر، المزيد من الأدلة المؤيِّدة لذلك. و الأمر نفسه سوف نراه فى أشهر كتب "ابن كمونة": الجديد فى الحكمة[1].

إن الفلاسفة الذين يصفهم د.عبد الوهاب المسيرى فى (الموسوعة) بأنهم: من أعضاء الجماعة اليهودية.. إنما شاركوا فى بناء الفلسفة الخاصة بالمحيط الثقافى للجماعة التى عاشوا بينها، فيكون "فيلون" فيلسوفًا يونانيًّا، ويكون "موسى ابن ميمون" فيلسوفًا إسلاميًا.. كما أنَّ اسبينوزا وماركس وبرجسون، فلاسفةٌ غربيون[2].

---

(١) انظرما كتبناه عن ابن كمونة فى ختام هذا الفصل.

(٢) يعنى، لا يمكن فهم فلسفتهم بعيداً عن سياق الفكر الأوروبى فى عصرهم، بصرف النظر عن كونهم يهوداً .

والمهمُّ أنه فى مقابل هذا (التهويل) للفلسفة اليهودية المزعومة، نرى (التهوين) من شأن الفلسفة الإسلامية التى لا يمكن تجاهلها، والتى ترى منا اليوم أعجب المواقف. فهذا أستاذٌ فى الفلسفة الإسلامية ينفى وجود الفلسفة الإسلامية برمَّتها. وهذه دولةٌ عربيةٌ تستعين بأموال النفط على إلغاء تاريخنا الثقافى، وترفض تمامًا كل ما يتعلَّق بالفلسفة الإسلامية (مع أن هذه الدول ترفع شعار الإسلام).. وهؤلاء باحثونا الجدُد يتكاسلون عن تطوير الفلسفة الإسلامية، ويكتفون بتكرار القديم من البحوث والأقوال.

مصر (لا) تتحدَّث عن نفسها

كنتُ دومًا شديدَ الإعجاب بقصيدة حافظ إبراهيم التى يقول فيها على لسان مصر: وقف الخلق ينظرون جميعًا، كيف أبنى قواعد المجد وحدى.. وهى قصيدة (مصر تتحدَّث عن نفسها) التى زادها صوت أم كلثوم جمالًا على جمال. لكنى اليوم شديد الخشية من أن نصدق هذه الرواية، فلا الخلق جميعًا يقفون لينظرون، ولا مصر تتحدث عن نفسها.

فى مطلع هذا الشهر[1] أجريت بحثًا على شبكة الإنترنت، أو بالأحرى بحثين، الأول عن مصر **Egypt** والآخر عن إسرائيل **Israel** فوجدت ما يلى: مصر (المحروسة) ذات العمق التاريخى الممتد سبعة آلاف سنة، والامتداد الجغرافى الممتد من الجبال إلى الوديان والسهول والصحارى، والخضم البشرى الذى تجاوز ستين مليونًا من البشر. يوجد عنها فى الشبكة

---

(١) أواسط سنة ١٩٩٥

٣٨٣٢ ملفًا معلوماتيًا! أما إسرائيل، الفاتنة ذات الثمانية وأربعين ربيعًا، ملفَّقة التاريخ من شذراتٍ متفرقة، الغاصبة أرض الناس بالقوة زاعمةً أن الغصبَ وعد الإله. يوجد عنها فى الإنترنت ثلاثةُ أضعافِ الملفات الموجودة عن مصر، وعددها بالتحديد (فى الليلة التى أجريت فيها البحث) ٩٠١٩ ملفًا تحت كلمة: إسرائيل.

والآن دعنا من الكم غير المتوازن، ولنتكلَّم عن الكيف بين هذه الملفات وتلك.. ملفات مصر، وفقًا لترتيب (ياهو) كانت على النحو التالى: الملف الأول عبارة عن صورةٍ ملوَّنة للأهرام، تحتها تعريف بمصر يقع فى قرابة ثلاث صفحات. والذى قام بعمل الملف، شخصٌ مصرى (على الأرجح) اسمه أشرف! والملف التالى مباشرة، غير مذكور فيه اسم صاحبه، وهو يحتوى على حصرٍ بالمواضع التى ورد فيها اسم مصر فى التوراة والتلمود والمشنا. لا تعليق!

الملف الثالث فيه صورٌ سياحية كثيرة، وتفاصيل عن المزارات الأثرية، والمدن المصرية. وهو ملف كبير وضعته وزارة السياحة فى بلادنا. والحق أنه ملف جيد، بيد أن فيه نقصًا ملحوظًا. فهو إذا عرض للإسكندرية مثلًا، أوجز بشدة، ولم يذكر العديد من علاماتها البارزة.. وتتوالى الملفَّات الخاصة بمصر، فهذا ملفٌّ عن أسماء ملوك مصر القديمة، ونبذة عن كل مِلِكٍ بحسب تسلسل الأيام والدول. وهذا ملفٌّ عن تراث مصر من الآثار والمخطوطات، قام بوضعه على الشبكة المركز الإقليمى للتكنولوجيا التابع لمركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار. وهذه (ملفات) عن الحركة الإسلامية فى مصر، وأخرى عن الاقتصاد، والمرأة، والتعليم. إلى آخر التفاصيل والتفرعات.. وباستثناء عددٍ محدود من

الملفات السابقة، فإنَّ غالبية ملفات مصر على الشبكة هى ملفاتٌ قصيرة، بلا صور، وأغلبها من وضعِ أفراد أغلبهم غير مصريين.

أما إسرائيل، فإنَّ ملفاتها التى تربو على التسعة آلاف، تبدأ (وفقًا لترتيب: ياهو) بملفٍّ خاطف للبصر يحمل اسم "إسرائيل عبر الإنترنت " ليس فيه صور ملونة فحسب، بل لوحاتٌ كرنفالية تعمل بأسلوب الوميض. وبخطٍّ ملون جميل، وسط بعض الصور، كتبوا: ثمانية وأربعين عامًا على الاستقلال. أى والله الاستقلال Indebendence مع أن التاريخ لم يذكر أنها كانت محتلة، أو موجودةً أصلًا، قبل الأعوام الثمانية والأربعين.

وتتوالى ملفاتُ إسرائيل فتأتى بكل شاردةٍ وواردةٍ، تصنع تاريخًا لهم من قطع الفخار، وتصوغ ملحمةً ملفَّقةً من غبار القرون، ثم تخبر عن واقعٍ وردئٍ معاصر. وبالبداهة، فلا توجد فى الملفاتِ اليهودية أخبار قانا أو دير ياسين أو صبرا وشاتيلا.. وبالقطع، لم تذكر الملفات أن أغلب رؤساء إسرائيل و وزارائها، طيلة الأعوام الثمانية والأربعين، كانوا من مرتكبى المذابح ومن أهل الاغتيالات.

ولكن تظل ملفات إسرائيل فى الشبكة الدولية، واجهة تضع أمام العالم تاريخًا لليهود، وحاضرًا لإسرائيل، ومستقبلًا للمنطقة بأسرها..كل ذلك بحسب ما يرونه هم، ووفقًا لما أرادوه هم، وطبقًا لما يخططون له.

ولا يمكن لمنكرٍ على إسرائيل أن يحذف من ملفاتهم شيئًا، وإنما يمكن له أن يعارض على نفس المنوال. بأن يضع ملفات جديدة يقرر فيها فكره، ويطرح رؤيته. وهنا نعود مرة أخرى لمقالنا السابق على هذه الصفحة، حيث

وصفنا المعرفة فى عصر المعلومات بالضفيرة[1]. فنؤكِّد أن ما تطرحه إسرائيل عنها وعنا، هو محض خصلة شَعْرٍ فى الضفيرة المعلوماتية، تلتفُّ حول خصلة أخرى يجب علينا أن ننسجَ شُعيراتها. أعنى ملفاتها المعلوماتية.لنا أن نصوغ التاريخ اليهودى بمنطقٍ أقوى من منطقهم، فنخبر العالم أن اليهود كانوا حثالة بجواف مصر القديمة، وهم سارقوها الذين سلبوا النساء الحلى والأموال ليلة خروجهم (المقدس) من مصر.. ثم نبصِّر العالم بالواقع، وبحقيقة أن إسرائيل ما هى إلا محتلٌ غاصب يحقق المشروع الاستراتيجى والاقتصادى للغرب الأوروبى، ومن بعده العم سام. وقد سام اليهود عالمنا الأمرين. ذبحوا الأسرى فى سيناء، وغصبوا الأرض فى فلسطين، وماطلوا الدنيا فى تحقيق السلام. ومازالوا يماطلون. تلك كلها موضوعاتٌ حيَّة، من شأنها تشكيل المعرفة المعاصرة فى أزمنة التدفُّق المعلوماتى.

إن أغلب مؤسَّسات العالم، والملايين من أفراده، يستقون معارفهم من ملفات الإنترنت.فلماذا لا نطرح عليهم قضايانا التى يشهد الحس الإنسانى السليم بأنها قضايا عادلة. لنقل للعالم أننا نريد إخلاء منطقتنا من أسلحة الدمار الشامل، ولنفصِّل القول فى مشروعنا التنموى الكبير الذى نهدف إليه اليوم، ولنصوِّر للعالم حقيقتنا وحقيقة الآخرين.. باختصار، ليكن لنا (قول) فى هذا العالم الصاخب بالأقوال.

(١) الإشارة إلى سلسلة مقالات عن الشبكة العنكبوتية الدولية (الإنترنت) نشرتها بجريدة الأهرام فى منتصف التسعينات .

خطورة القشرة المعلوماتية

تشهد مصر فى هذه الفترة[1] فورةً معلوماتية متنامية، فالأفراد والمؤسسات يتدافعون للَّحاق بركب العصر، فيقتنوا أجهزة الحاسب الآلى (الكمبيوتر) سواءَ الجهاز الشخصى P.C أو أجهزة المؤسَّسات المرتبطة فى شبكة NET. ويتزايد كلَّ يوم دخول الأفراد والمؤسسات على شبكة (الإنترنت) حتى إنَّ مصر تعدُّ اليوم من ضمن أسرع دول العالم، فى تزايد معدل الاشتراك بهذه الشبكة. وتسبق فى هذا المعدل، دولًا كثيرة.وتتكاثر مراكز المعلومات الفرعية، ويتعاظم حجم المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء فيمدُّ فروعه فى المحافظات وتتعدد مشروعاته لتشمل قطاعات جديدة.. ناهيك عن مظاهر أخرى للفورة المعلوماتية فى مصر، قد يراها البعض مظاهر سلبية مثل استنساخ البرمجيات، وهو مظهر إن صحَّ أنه "سلبى" إلا أنه يعبر عن تزايد الإقبال على البرامج المتنوِّعة للكمبيوتر. (معلومة: اليابان هى أكثر دول العالم استنساخًا للبرمجيات)

نخلص مما سبق، إلى القول بوجود سقف معلوماتى يظلل مصر، ويتزايد متانةً كل يوم. بيد أن ما أخشاه، وما أدعوا للانتباه إليه هو خطورة أن يكون هذا السقفُ مجرد قشرةٍ تحيط بمجتمعٍ غير معلوماتى فى بنيته العميقة.. سوف أسوقُ واقعةً تفسر الأمرَ:

(١) الإشارة الى النصف الثانى من التسعينيات.

منذ أسابيع قليلة[1] زرت المتحف المصرى بميدان التحرير، وهو فيما أظن، أكبر وأغنى المتاحف الأثرية فى العالم. على الأقل فيما يخص الآثار الفرعونية. فى مدخل المتحف يوجد إنجازٌ معلوماتى بديع، عبارة عن جهاز كمبيوتر يعمل بنظام الشاشة اللمسية، به قاعدة بيانات لمحتويات المتحف تشتمل على صور القطع الأثرية، وتعريف بها وبأماكن حفظها. فإذا بدأ مستخدم الجهاز (والجهاز يعمل طول الوقت، وبدون مقابل) ظهرت على الشاشة رؤوس الموضوعات، فإذا لمس المستخدمُ موضوعًا منها، أعنى لمس الشاشة فى موضع ظهور الموضوع أو الصورة، نقل إليه الجهاز التفاصيل بعد التفاصيل، وتوالت صور القطع الأثرية والبيانات الخاصة بها، مقروءة على الشاشة ومسموعه بالصوت. وقد أسعدنى هذا الإنجاز فى مدخل المتحف، خاصة أننى عاصرتُ خطوات عمله وبنائه فى أروقةِ قطاع الثقافة بمركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، حيث كنا نعمل فى قواعد بيانات المخطوطات والزملاء والأساتذة يعملون فى بناء قواعد البيانات الخاصة بالآثار فى مصر. بعبارةٍ أخرى: كنت أرى هذا المولودَ يتخلَّق، ثم فرحتُ به لما رأيته يافعًا يسعى.

فى الطابق الأعلى حيث قاعة المومياوات، تأمَّلتُ أجسادَ فراعين مصر العظام: سيتى، رمسيس الثانى، مرنبتاح. وغيرهم. ولما أوشكتُ على الخروج من القاعة، اقترب منى شابٌّ فى زىٍّ رسمى يميز موظفى المتحف، همس فى أذنى بما نصه:هل تعرف هذا الفرعون، إنه رمسيس الثانى، فرعون موسى! أدهشتنى المعلومة، وأدهشنى الموظَّف حين سألته عن المصدر الذى جلب منه

---

(١) خلال سنة ١٩٩٨

هذه المعلومة السوداء، فقال ما نصه: هذه حقيقةٌ علمية مؤكَّدة! سألته عمن أكَّدها، قال: الأساتذة الكبار فى علم المصريات.

وهكذا يتم الترويج لمزاعم اليهود فى قلب القاهرة، بل فى قلب التاريخ المصرى القديم الذى يصرُّ يهود اليوم على تزييفه بمختلف السبل. وهاهم يجدون منا، وفى قلب قلعتنا الأثرية، منْ يروِّج تزييفهم.. أفهمتُ الشابَّ المتحذلق، الجاهل، أن ما يقوله لا هو مطلوب منه، ولا هو علمى أصلًا، ولا هو متفق عليه. والأصل فى الأمر أن اليهود، يريدون اليوم أن يكسروا شوكة الاعتزاز المصرى بالتاريخ القديم، بإحداث تناقضًا لدى معاصرينا بين انتمائهم التاريخى وانتمائهم الدينى هَزَّ الشاب كتفيه، غير مُبالٍ وغير مقتنع.

وخرجتُ أتأمَّل هذه الحالة "التحتية" من عدم الوعى بأثر المعلومة فى تأسيس الرؤى والتوجُّهات، وعدم الانتباه إلى الدور الخطير الذى يمكن أن تلعبه معلومةٌ سوداء واحدة يتم الترويج لها. وبينما كنتُ غارقًا فى تلك التأمُّلات، صدمتنى مسألةٌ أخرى: أغلب التوابيت المحفوظة فى المتحف، عليها بطاقة تعريف نصها تابوت، وُيلاحظ أن آلهة الحماية تفرد أجنحتها على التابوت لحماية المومياء. وكان المحفور بالموميات بالفعل "مَاعِتْ" رمز العدالة فى مصر القديمة، وتمثِّلها امرأةٌ تمدُّ جناحيها وتمسك بيدها ريشةً. وقد كان شعار المصرى القديم "عاش فى ماعت" هو بوابة دخوله إلى العالم الآخر، ومن ثَمَّ اهتمُّوا برسمها وحَفْرِها على التوابيت..هى إذن ليست آلهة الحماية، مع أن لحماية التوابيت، آلهة أخرى تصب جام اللعنات على من يقترب من المومياء أو يسعى لنهبه. بيد أن متحفنا المصرى، لم يحرر المعلومة التى سجَّلها على

توابيته، ولم يهتم بناتج هذه المعلومة المتسرعة التى دوَّنها على أغلب التوابيت. وهو الناتج الذى أقلُّه، وَصْمُنَا بالجهل بتاريخنا.

من هنا يصحُّ الكلام عن خطورة القشرة المعلوماتية، حيث يوهم الإطار الخارجى للمجتمع بأنه مجتمع معلومات. مع أن الحقيقة أنه مجتمع غير معلوماتى بالمرة. فما هو مجتمع المعلومات؟ هو باختصار: مجتمعٌ تؤمن طبقاتُه على تفاوتها بأهمية المعلومة، وبضرورة تحريرها ودِقَّتِها وسرعةِ تداولها. مجتمعٌ يتصل فى داخله، ويتواصل مع خارجه بانسياب فائق، لا تعوقه مناطق لم تمتد إليها المعلوماتية. مجتمعٌ لا يجهل مكوناته الحاضرة وتاريخه الماضى، ويؤمن بضرورة التخطيط للمستقبل على أساسٍ من "المعرفة" التى هى جملةُ"معلوماتٍ" متراكبة متراكمة. مجتمعٌ يقِظٌ، لا يسهل اختراق ما تحت قشرته الخارجية. مجتمعٌ متطوِّر لا يقف عند حدود الصيغ المعرفية المستهلكة، والمغلوطة والمدسوسة، بل يُعمِل النقدية والتطوير فى كل الأمور.

ابن كمونة[1]

هو اسم الشهرة لسعد بن منصور بن سعد بن الحسن الإسرائيلى(١٢١٥–١٢٨٥) عاش فى بغداد وعَمِل بعض الوقت مع الغزاة المغول، الوثنيين. ارتبطت شهرته بكتابه "الجديد فى الحكمة" وهو الكتاب الذى نال اهتمامًا

(١) شاركتُ بهذه المقالة،فى موسوعة د.عبد الوهاب المسيرى: اليهودية والصهيونية .

خاصًا من المسلمين وأعضاء الجماعات اليهوديَّة، مع أنَّ لابن كمونةَ مؤلفات أخرى مثل: التذكرة فى الكيمياء وشرح كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا، وشرح كتاب التلويحات العرشيَّة للسهروردى، وتنقيحِ الأبحاث فى الملل الثلاث.. وهذا الكتاب الأخير مطبوع مع ترجمة للإنجليزيَّة (جامعة كاليفورنيا ١٩٦٧، نشرة موسى برلمان) أما الكتب الأخرى فهى فى حكم المفقود. ويتناول الكتاب، النقاشَ الدائر بين أتباع الديانات الثلاث (اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام) ويبدأ بفصل تمهيدى عن النبوَّةِ بشكل عام، ثم يُتبعه بفصول عن النبوَّة فى الديانات الثلاث، تتسم بالموضوعيَّة. كما يتبدَّى فى الكتاب تعَاطُف ابن كمونةَ مع الاتجاهات العقلانيَّة (مقابل الاتجاهات الصوفيَّة والإشراقيَّة) ولكنْ مادَّةُ الكتاب فى معظمها اقتباساتٌ من كتابات ابن سينا والغزالى وموسى بن ميمون (دون أن يعيِّنَ المصدر) وقد نسب البعضُ لابن كمونةَ،كتاب: إفحام اليهود. مع ادِّعاء أنَّه أسلم فى آخر حياته! وهو خلط بين ابن كمونةَ والسموأل. فالأخير هو الذى أسلم، وألَّف كتاب: الإفحام.

ويُعدُّ "الجديد فى الحكمة" أحد أهمِّ المؤلفات الفلسفيَّة (ذات الطابع الدينى) فى القرن السابع الهجرى. ومع أنَّ مؤلفه يهودى الديانةِ، إلاَّ أنَّ الكتابَ يحمل طابع الثقافة الإسلاميَّة الأصيل آنذاك. فهو مكتوب بلغة عربيَّةٍ فصيحة، ويعالج القضايا نفسَها التى عالجها المسلمون آنذاك، مستخدمًا مصطلحاتهم وتقسيمَهم للقضايا. بل يعكس ابنُ كمونةَ بقوَّةٍ، طابعَ الثقافة الإسلاميَّة التى كان المسلمون يبدأون بها مؤلفاتهم. يقول ابنُ كمونةَ بعد البسملة:

أحمدُ الله تعالى حمدًا يُقرِّب إلى جنابه الكريم، ويُوجب المزيدَ من فضله وإحسانه. وأستغفره استغفارًا يؤمِّن من عقابه الأليم، ويُخلِّد فى الفردوس الأعلى

من جنابه. وأسأله الهدايةَ إلى صراطه المستقيم، بإلهام الحق وإنارة برهانه (لاحظ السجع التبادلى المُركَّب بين العبارات). وبعد، فقد أتفق أربابُ العقائد العقليَّة والديانات النقليَّة، على أنَّ الإيمانَ بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات، هو غايةُ الكمالات الإنسانيَّة... إلخ.

ولا يحمل الجديد فى الحكمة أىَّ جديدٍ مخالف لما قرَّره العلماء المسلمون السابقون على ابن كمونة، وبخاصة متكلمو المعتزلة والأشاعرة، فهو يكاد يلخِّص أقوالهم، أو بالأحرى ينتقى من أقوالهم أشهرَها. ومهما فتَّشنا فى هذا الكتاب، فلن تجدَ دليلًا واحدًا، ظاهرًا أو مستترًا، على يهوديَّةِ مؤلفه ابنِ كمونةَ .حتى إنَّه لم يفعل كسلفه "موسى بن ميمون" الذى كان ينثرُ فى كتابه دلالة الحائرين بعضَ آياتِ التوراة بين آراء متكلمى المسلمين، ليُضفىَ طابعًا يهوديًّا مُصطَنعًا على ثقافته العربيَّة الإسلاميَّة.

وقد كتب ابنُ كمونةَ كذلك، كتيِّبًا عن الفرق بين اليهود الحاخاميين والقرّائين.

مشكلة بروتوكولات حكماء صهيون

توضيح لازم

فجأة طفرت على السطح قضية بالغة السخف، تتعلق بواقعة حدثت أثناء عملى بمكتبة الإسكندرية.. إذ نشرت جريدة الأسبوع المصرية قبل أسبوعين (يوم ٢٠٠٣/١١/١٧) كلامًا سخيفًا منسوبًا إلىَّ، امتزجتْ فيه الوقائع بالخيالات. فقد جاءت قبلها صحفية من الجريدة لسؤالى عما قمت به من تجديدات لقاعة عرض متحف المخطوطات بالمكتبة، أعطيتها التفاصيل مكتوبة، مثلما أعطيتها لغيرها من الصحفيين الذين جاءوا لتغطية افتتاح المتحف بعد تطويره. وقد ذكرت "الصحفية" كلامى الفعلى فى آخر سطور مقالها المذكور، لكنها اختلقت للمقال عنوانًا كاذبًا هو (بروتوكولات حكماء صهيون فى صدر متحف المخطوطات) ثم راحت تسرد اختلاقات وأكاذيب لا عمق لقرارها. نسبت إلى أننى وضعت كتاب "البروتوكولات" فى فاترينة الكتب السماوية بجوار التوراة، وادَّعت أننى صرَّحتُ لها بأن هذا الكتاب أهم من التوراة.. ثم سكبت الزيت على النار بقولها:"تساؤلات كثيرة تبادرت إلى الأذهان عقب وضع الكتاب فى المتحف منها: لماذا تم وضعه فى فاترينة الكتب السماوية وبالتحديد بجوار التوراة، وهل ستصمد إدارة المتحف أمام اعتراضات اليهود المتوقعة".

وبخصوص هذه الواقعة، صدر عن المكتبة البيان التالي: الإسكندرية فى ٦ ديسمبر . نشرت حديثًا بعض الأنباء الصحفية حول عرض الترجمة العربية الأولى لبروتوكولات حكماء صهيون، فى أحد المعارض بمكتبة الإسكندرية وهو ما يقتضى ردًّا سريعاً وواضحًا. فلقد كشف التحقيق المبدئى أن الكتاب عُرض لفترة قصيرة، فى إحدى الفاترينات المخصصة للعرض الدورى، لبعض نوادر وغرائب المقتنيات لدى المكتبة. نؤكد أن الكتاب لم يعرض قط بجوار التوراة، كما لم يذكر مطلقًا بأنه أحد الكتب المقدسة أو أنه أساس الدستور اليهودى. والمعروف عن هذا الكتاب أنه اختلاق تم فى القرن التاسع عشر، لكى يذكى روح العداء ضد اليهود.

* * *

ومن جانبى، فإننى أؤكد أن "البروتوكولات" كتاب عنصرى، سخيف ومختلق. وربما يتوجب النظر (علميًا وأكاديميًا) بعمق فى المسألة اليهودية بعامة، وطرح رؤيتنا للتفاعل بين الديانات[1]. إننا كمتحضرين نرفض العنصرية بكافة أشكالها، وندعو للتسامح والتفاعل البناء بين البشر. نحن نؤمن أن التعصب يقود إلى الانطفاء الحضارى، بينما يؤدى التسامح إلى طريق التحضر (راجع أبحاثنا: الأفق الأندلسى، جَدَلِيَّةُ: الدِّين / العُنف / السِّياسة..).

(١) كانت تلك العبارة إشارةً أخرى، مبكرة، لما سوف نقوم به بعد أكثر من عشر سنوات من طرحٍ متعمقٍ للمسائل والمشكلات (العبرانية) فى محاضرات ومقالات: عام اليهوديات.

تعليق على ما حدث

مرةً أخرى، فوجئتُ بتلك السيول من التعليقات الغاضبة، والطريفة، التى انهمرت فور نشر صحيفة الأسبوع القاهريَّة أقوالًا منسوبةً إلىَّ بلا دليل، تسوِّغ اتهامى بمعاداة الساميَّة. ولن أناقش هنا ما نشرته الجريدة، فقد رددتُ مجملَه فى "التبيان الأول: توضيح لازم" وسوف أناقش تفصيلاته فى "التبيان الثالث: الواقعة والتخيُّلات".. أما هنا، فسوف أكتفى بسرد بعضًا من التعليقات التى طفرت فجأةً، ونشرها على صفحات الإنترنت كثيرون (أغلب الظن أنَّهم يهود متحمسون).. أُشير هنا، أن ما يزيد على مائة وعشرين موقعًا متفاوتة القيمة والأهميَّة، قد انطلقت عقب نشر الموضوع بجريدتىْ: معاريف، يديعوت أحرونوت. فسردتْ هذه المواقع "الواقعة" بأساليبَ مختلفةٍ، ثم راح كتَّابها يسكبون علينا من رحيق حكمتهم، الحمقاء.. وقد اخترتُ بعضًا من تعليقاتهم، وأردفتُ كلَّ تعليقٍ بالموقع الذى انطلق منه. فمن تلك التعليقات:

– إن الفارق بسيط بين د. زيدان و القرد ، ولكن المقارنة ظالمة، فلو امتلأ الشرق الأوسط بالقردة سيكون أقل ضررًا[1].

– إن العرب مولعون بإذلال أنفسهم، وذلك عن طريق محاكاة الأوروبيين وتبنى أسوأ أفكارهم، إلا أنه هذه المرة دخل التخلف و الادعاء

(1) http://www.gweilodiaries.com
http://broadscapeventures.com/weblog/dfine/a

فى مشروع يضاهي فى توجهه الداعي إلى القضاء على اليهود، كل ما قامت به الفاتيكان أو هتلر أو مارتن لوثر. لقد قامت الحكومتان المصرية والإيطالية، بدعم ومساعدة منظمة اليونسكو، بإنشاء متحف فى مصر يجهر بتشويه أقدس النصوص فى الدين اليهودى، وها هو آخر مظاهر تدمير الذات الإسلامى/الأوروبى [1].

– ليس فقط المعتوهون والإرهابيون، سيصاب أيضاً بالدهشة كل من يعتقد أن معاداة السامية تقتصر على الجهلة، حين يقرأ ما يلي: ذكر معهد الشرق الأوسط للدراسات الإعلامية الذى يقوم بنشر ترجمات إنجليزية للإصدارات العربية، وذلك نقلًا عن جريدة (الأسبوع) المصرية فى حوار أجرته مع د. يوسف زيدان مدير مركز المخطوطات الجديد فى (متحف الإسكندرية، يشرح فيه عن سبب عرض كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) ذلك الكتاب الشرير، والمزيف، والمعادى للسامية، ضمن الكتب السماوية، جنبًا إلى جنب مع التوراة. إن الدكتور زيدان مدير لمتحف وليس شخصًا فى السابعة عشرة من عمره قادمًا من معسكر للاجئين وفى يده مدفع كلاشنكوف أو حزام تفجير انتحارى، إنما هو رجل حاصل على درجة الدكتوراة. فإذا كان المثقفون فى الدول العربية يتفوهون بمثل هذا الهراء، فلا عجب إذن أن يتعذر تحقيق سلام بين إسرائيل والعالم العربى [2]

(١) rchives/۰۰۱۲۵٦.html

(٢) http://ecumenicalinsanity.blogspot.com/ ecumenicalinsanity_archive.html

– إن د. يوسف زيدان مدير متحف المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، التى تحظى بدعم يصل قدره إلى حوالى ١٠٠ مليون دولار مقدمة من اليونسكو و عدة حكومات. يدعو لبرنامج سياسى خبيث، حيث قام بوضع كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) الملفق سيىء السمعة فى صندوق عرض صغير بجانب لفافة للتوراة. وفى حوار صحفى تم نشره، تحدث عن الكتاب، وكأنه نص حقيقي، واصفًا إياه بأنه "أصبح واحدًا من (العقائد) المقدسة عند اليهود". لقد أصبحت تلك التصريحات شيئًا روتينيًا فى الإعلام المصرى (الذى تدعمه الحكومة) إلا أنه من المفجع أن نرى المرض وقد اخترق مؤسسة ذات صبغة عالمية، تتظاهر بأنها تطمح فى أن تكون "مركزًا لروح جديدة من التحليل النقدى". ومن هنا لا يسعنى إلا أن أصف آراء د. زيدان بالجنون، وأصف المجتمع المصرى المؤيد لتلك الآراء بأنه فظيع.

لقد أقامت مكتبة الإسكندرية علاقات وطيدة ليس فقط مع الحكومات والسياسيين و المؤسسات غير الحكومية فى جميع أنحاء العالم، بل أيضًا مع كبار المفكرين مثل امبرتو ايكو و بروستر كيل، تقودهم الرؤية والدعاية، والمال بصورة جزئية –على ما أعتقد– الذى يمكن استخدامه لنشر وترويج أعمالهم الجيدة مثل أرشيف الإنترنت. إننى لا أقصد أن هؤلاء المفكرين شركاء لزيدان، ولا أنهم حتى كانوا مدركين لذلك. إلا أنه سيكون من المثير للاهتمام أن نرى كيف سيكون موقف الاتحاد الأوروبى، الذى يرى دائمًا أن كل شيء على ما يرام [1].

(١) http://itre.cis.upenn.edu/~myl/languagelog/archiv es/۰۰۰۱۸۳.html

– وإذا بكل هذا الهراء المتعصب ليس كافيًا، فللدكتور زيدان موقع على شبكة الانترنت يبث الكراهية وأفكارًا أشد سوءًا من الكراهية. إن هذه ليست فقط إطلالة على المشاكل الثقافية فى الشرق الأوسط، المسلم، بل أيضًا مثال واضح على مستوى التدنى الذى وصلت إليه الأمم المتحدة. إن تلك الواقعة ليست حدث منفصل، فلطالما كانت الأمم المتحدة مأوى للدول المارقة، ومشجعًا للكراهية المتمثلة فى معاداة السامية والتطهير العرقى. ورغم ذلك ولأسباب غير مفهومة يريد الكثيرون أن يخضعوا دولتنا لهذه المنظمة نظرًا لسلطتهم الأخلاقية السامية المفترضة. نعم، بالطبع! يمكنهم الاحتفاظ بتلك "السلطة الأخلاقية" والتمسك بها. فإن هذا العرض المثير للازدراء يؤكد أن النسخ ليست فى جودة الأصل. وإذا كان هذا هو نوع "المعرفة" التى يريدون نشرها، فيجب على المسلمين أن يصنعوا لنا جميعًا معروفًا، بإشعال النيران فى مكتبة الإسكندرية تلك، كما فعلوا فى المكتبة القديمة[1].

– كلما انزلقتُ فى الاعتقاد أن العالم العربى سيتخلى فى حياتى عن معاداته المثيرة للشفقة لليهود، تعيدنى قصة كهذه إلى أرض الواقع.أيها الناس! إن هذا ليس رجلًا أصوليًا يعانى من الفقر ويصب جام غضبه – الذى يمكن فهم دوافعه– على المضطهدين الصهاينة. إنه مدير متحف فى بلد ردت إليها إسرائيل أرضها "المحتلة" فى أواخر السبعينيات، فى مقابل معاهدة السلام.

(١) http://john-betts.blogspot.com

إن تبوأ رجل كهذا، مركزًا مثل هذا المركز المهم يكشف لكم عن حقيقة ما جناه الإسرائيليون من هذه الصفقة[1].

– إن الدكتور زيدان له موقع "للتراث والمخطوطات" على الإنترنت ينشر فيها مقالاته وأشياء أخرى. وفى إحدى مقالاته بعنوان (WWW والشبكة المعلوماتية) يكتب د. زيدان عن الفرق بين الحقيقة و الإعلام عن الحقيقة، فيقول:"لا شك أن كل نبأ يصدر عن حدث (معين) إلا أن الفرق بين الحدث والنبأ كبير.. فعلى سبيل المثال، بمجرد أن يتم ذكر الفظائع التى ارتكبها هتلر، تحضر إلى الأذهان حرق اليهود فى غرف الغاز. وهذا بسبب المعلومات التى تم توارثها عن الهولوكست.. إنها المعلومات التى انتشرت فى العالم عن طريق طائفة متنوعة من المعلومات من تقارير الصحفيين، و البحوث التاريخية، و التعويضات، و الإلحاح الذى لا ينقطع فى وسائل الإعلام، والأفلام أمثال (قائمة شندلر) الذى استحوذ على دموع العالم بأسره والذى تم حظره فى بلدنا (مصر) حتى لا نبكى نحن أيضًا على مصير اليهود المساكين! لقد قتل النازيون مليون يهودى فقط... فلم يكن هناك كمية كافية من غاز السيانيد.. ليس المهم أن المعلومة قد وصلت، بل ماذا عن الحقيقة؟ ففى الحقيقة كان ٥٠ مليون هو عدد ضحايا النازيين، منهم مليون من اليهود والبقية من الغجر و البولنديين و جنسيات أخرى. وفى الحقيقة أثبت تحليل

(١) www.damianpenny.com

تم عمله لحجرات الغاز المزعومة أنها كانت غرف للتعقيم، ولا توجد بها كمية من السيانيد تكفى للقتل..وفى الحقيقة لو أراد هتلر أن يبيد يهود أوروبا لفعلها، حيث كانت الفرصة مهيئة له. إن الفارق بين الأحداث والمعلومات التى يتم نشرها وتداولها عن هذه الأحداث لكبير[١].

– د. زيدان هو مسئول معين من قبل الحكومة، ويتمتع بعلاقات متينة مع الرجال الأقوياء الذين يحكمون مصر. وتعبر أفكاره عن الرأى العام السائد فى المجتمع المصرى والعالم العربى الذى يفيض بمشاعر الكراهية، لدرجة تفقد عندها الحقيقة معناها. ها هو شكل الجهل والعنصرية الذى نحن بصدد مواجهته عندما نتعامل مع العالم العربى الإسلامى، والذى يجعل حضارتهم حضارة متخلفة [٢].

– صرح د. زيدان لأسوشيتدبرس قائلًا: "لم أتوقع كل هذه الجلبة، لقد حدثت ضجة بدون أى سبب. فلم يكن هناك داعٍ لمثل هذه الاختلاقات الهائلة."

وحين سُئل عن المصدر الذى كان وراء "الاختلاقات" كانت إجابته: "الضغط اليهودى." [٣]

---

(١) http://www.memri.org/bin/latestnews.cgi?ID=SD٦١٩٠٣

(٢) http://www.conpro.blogspot.com

(٣) http://www.jpost.com/servlet/Satellite?pagename

– طالب د. شيمون صاموليز مدير الاتصالات الدولية بمركز ويزنتال، رئيس الوزراء الإيطالى سلفيو برلسكونى، بربط الاستمرار فى تقديم الدعم المالى لمكتبة الإسكندرية بسحب كتاب (البروتوكولات) من العرض، و الاستغناء عن المدير الحالى، وإصدار المكتبة إدانة عامة لطبيعة الكتاب الشريرة والتى تعد انتهاكًا لقوانين الاتحاد الأوروبى المتعلقة بالتحريض على الكراهية، وتشويهًا لأثر قديم فى تراث العالم. [١]

الواقعة والتخيلات

عودًا إلى ما نشرته جريدة الأسبوع القاهرية، فأثار زوبعة الفنجان التى نحن بصدد الحديث عنها، أودُّ هنا أن أتوقفَ قليلًا عند بعض الملاحظات والتساؤلات، التى منها :

(أ) ما العلاقة بين العنوان والصورة الموضوعة مع المقال؟ فالموضوع الأساسى للمقال، هو تجديدات مُتحف المخطوطات احتفالًا بمرور عام على افتتاح المكتبة. فى حين أنَّ العنوانَ، والصورةَ، لا يرتبطان بالموضوع من قريب أو بعيد، وإنما بالزوبعة المراد إثارتها[٢]!

(ب) ما العلاقة بين كلامى الفعلى الذى قلته للجريدة (وهو المنشور فى

---

(١) http://www.wiesenthal.com/index.cfm

(٢) كانت الجريدة، المصرية، قد نشرت مع الموضوع صوراً لمتعصبين يهود يؤدون الصلاة فى القدس.. واختلقت عناوين لا علاقة لها بالموضوع .

السطور الاثنين والعشرين الأخيرة) وما سبقه من كلام تهييجى غير متوافق أسلوبيًا وموضوعيًا، مع ما نقلته عنى الصحف الأخرى كلُّها، ومع ما ذكرته (الأسبوع) نفسها فى السطور الأخيرة، الاثنين والعشرين؟

(جـ) كيف يجوز لشخصٍ متخصِّص مثلى، حاصل على درجة الأستاذيَّة فى الفلسفة، ونشر حتى الآن أكثر من أربعين كتابًا متخصِّصًا، أن يستهين ببساطةٍ بالتوراة التى أثرت فى الفكر الإنسانى كله؟ فيقول إنَّ ذلك الكتاب التافه (البروتوكولات) أكثر منها أهمية ؟

(د) ما سر التثوير المتعمَّد فى العبارات التى استخدمتها الصحيفة لعرض الموضوع؟ لن نوردَ هنا الموضوع بأكمله، وإنما سنتوقف عند مختاراتٍ منه، لتكونَ إشارةً لضرورة الوقوف عندها.. جاء فى الصحيفة ما نصُّه: على عكس المتوقَّع تم وضع (البروتوكولات) الذى أُضيف داخل فاترينة الكتب السماويَّة بجوار التوراة، ليطالعَه زوَّارُ المكتبة من كلِّ جنسيَّات العالم.. قال المترجم فى مقدِّمته: هذا الكتاب أخطر كتاب ظهر فى العالم.. وكانت نسخة هذا الكتاب قد أودعت قسمَ الإهداءات وقد تم وضعُه منذ أيام داخل مُتحف المخطوطات. تساؤلات كثيرة تبادرت إلى الأذهان عقب وضع الكتاب فى المتحف منها: لماذا تم وضعُه فى فاترينة الكتب السماويَّة وبالتحديد بجوار التوراة؟ وهل ستصمد إدارة المتحف أمام اعتراضاتِ اليهود المتوقَّعة، والذين يعتبرون مجرد الحديث عن البروتوكولات جريمة شنعاء.. الأسبوع التقت بالدكتور يوسف زيدان مدير متحف المخطوطات، وصاحب قرار وضع الكتاب فقال: عندما وقعت عينى على هذه النسخة النادرة من الكتاب الخطير، قرَّرتُ على الفور وضعه إلى جوار التوراة، وربما يُعدُّ كتابُ البروتوكولات أهمَّ من التوراة.. إلخ.

أقول: إن هذه العبارات والوقائع المختلقة جديرةٌ بالنظر والاعتبار، فلم يحدث اطلاقًا أن وُضع كتاب البروتوكولات بجوار التوراة، ولم يحدث أنَّنى قلت عن هذا الكتاب التافه المعنون بالبروتوكولات: إنه كتاب خطير.. وبالطبع، فإنَّه لم يحدث أنَّنى كتبت كلامًا كهذا، أو سجَّلتُه، مع هذه الصحفيَّة أو غيرها. بعبارة أخرى، هو كلام لا دليل عليه. ولسوف أعودُ للكلام عن مسألة (الأدلة) تفصيلًا عند مناقشتى القادمة للمسألة اليهوديَّة برمَّتِها.

أزيد على ما سبق: أين تلك الأذهان التى تبادر إليها التساؤلاتُ عن السبب فى وضع الكتاب فى فاترينة الكتب السماويَّة، ولماذا تبادرت إلى الأذهان قدرةُ إدارة المتحف على الصمود أمام اعتراضات اليهود المتوقَّعة، ولم يتبادر إلى الأذهان التساؤل عن قدرتنا جميعًا على الصمود! ولماذا أردفت الصحيفةُ اسمى بقولها "صاحب قرار وضع الكتاب" علمًا بأنَّ الصحيفةَ وزوَّار المتحف، يعلمون أنَّ كتاب (البروتوكولات) باعتباره واحدًا من الوثائق التى شكَّلت الوعى المعاصر، كان سيأخذ دوره فى العرض المؤقَّتِ بفاترينة الوثائق (لا الكتب السماويَّة) مع غيره من غرائب مقتنيات المكتبة، دون أىِّ تعليقٍ عليه أو مادَّة علميَّة باللغات المختلفة، وهو ما نفعله مع المقتنيات الأساسيَّةِ المعروضة بالمتحف من مخطوطاتٍ وكتب نادرة، يزيد عددُها على مائة وخمسين موضوعًا. وكان المفترض أن يُعرضَ الكتاب لمدَّةِ شهرٍ ثم تتغير الفاترينة بكاملها، وقد تغيرت بالفعل هذا الشهر، وهى اليوم تحتوى على موضوعات لاتقل غرائبيَّةً عن (البروتوكولات).

نخرج من ذلك كلِّه، إلى حقيقة صغيرة تقول إن (واقعة) العرض المؤقَّت لأول ترجمة عربيَّة للبروتوكولات، تأسَّست عليها تخيلات كثيرة.. تخيلات

بدأت بالطريقة التى نُشر بها الموضوع، فى الجريدة المصريَّة. ثم التزامن اللافت للنظر، بين عرض الموضوع (يوم ٢٠٠٣/١١/٢٧) بالجريدتين الإسرائيليتين، ثم الهجوم النظامى الذى شنته مواقع الإنترنت فى اليوم التالى مباشرةً .

إن التخييلات قد تكون من القوَّة، بحيث تكتسب سلطانًا على الأذهان. سلطانًا يفوق قدرة (الواقعة) الفعليَّةِ على الحضور، والتأثير فى الأذهان. وبالطبع، كلما كانت الأذهان أكثر رصانةً وحصافةً وعقلانيَّةً، كلما قلَّ سلطان التخييلات وتأثيرها.. ولكن غالبية الأذهان ليست كذلك .

خلاصة القول[1]

الزوبعة المفتعلة التى أثيرت بسبب العرض المؤقت لنسخة من الترجمة العربيَّة الأولى من كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) بمتحف المخطوطات بمكتبة الإسكندريَّة، تُعَدُّ حالةً نموذجيَّة للمعالجة العشوائيَّة والتناول الغوغائى للوقائع.. وها هى التفاصيل:

يوم ٢٠٠٣/١١/١٧ نشرت صحيفة قاهريَّة خبرًا كاذبًا ملخَّصه أنَّ كتابَ (البروتوكولات) معروضٌ بصدر مُتحف المخطوطات فى فاترينة الكتب السماويَّة بجوار (التوراة) وادَّعت الصَّحافيَّة التى نشرت الخبر الكاذب، أنها سألتنى عن السبب فى وضع (البروتوكولات) مع الكتب السماوية، وتحديدًا

(١) نُشر هذا الجزء (حتى آخر الفصل) فى مقالة مفردة بمجلة الهلال، بداية عام ٢٠٠٤.

بجوار التوراة، وأنَّنى قلت لها: البروتوكولات أهمُّ من التوراة! ولم تنس الصحيفة أن تضع مع الخبر صورةً، لا لمتحف المخطوطات، وإنما لبعض حاخامات اليهود! ومن هنا.. بدأ تجلِّى الغوغائيَّةُ والعشوائيَّةُ، بل وسوءُ القصد والنيَّة.

العجيب فى الأمر أنَّ الصحافيَّة ذاتها، وهى التى تعلم أنَّ الكتابَ لم يوضع يومًا بجوار التوراة، تابعت ذلك التهييج العشوائى الغوغائى، سيىء القصد والنيَّة، فنشرت تغطيةً أخرى للموضوع نفسه يوم ٢٠٠٣/١٢/١٥ وأرفقت هذه المرَّة صورةَ كتاب (البروتوكولات) فى الفاترينة التى كان معروضًا بها. فلم ينتبه أحدٌ إلى أن الصحافية دون أن تدرى، تُكذِّب نفسها بنفسها! إذ أن الصورة المنشورة، تدلُّ بوضوحٍ على أنَّ الكتاب كان فى فاترينة (الوثائق) لاالكتب السماويَّة وأنَّ المعروض مع كتاب (البروتوكولات) هو وثائق: خرائط، حجج شرعيَّة، وقفيَّات.. إلخ.

والأعجب فى هذا الأمر، أنَّ بطاقة "فاترينة الوثائق" تظهر فى الصورة! وقد ثوَّرت الصحيفةُ بعض الأقلام ضدَّ المكتبة، حين خيَّلت لمجموعة من المثقفين المصريين أنَّ الكتابَ تم (سحبُه) من مكتبة الإسكندريَّة تحت ضغوط خارجية! وهو ما أثار غضب أكثرهم، فصرَّح تصريحاتٍ ناريَّةً ضدَّ المكتبة بينما واقع الأمر أنَّ فترة (عرضه) هى التى انتهت، وبالأحرى: أُنهيت قبل موعدها بأيام بسبب الزوبعة الزائفة، وعاد الكتابُ إلى مكانه (مع عدَّة نسخٍ أخرى) فى قاعة الكتب النادرة. ليكونَ متاحًا للباحثين والدارسين المتخصِّصين، وليس لعموم المتردِّدين على المكتبة (وجدير بالذكر أنَّ أى مكتبةٍ كبرى بالعالم، تحوى عشرات النسخ من هذا الكتاب، فى اللغات المختلفة!) ولو كانت الصحيفة المصريَّة قد تحرَّت الدقَّة فى الموضوع الذى نشرته أولًا، أو كان المثقَّفون

المصريُّون الذين نشرت الصحيفة تصريحاتهم الغاضبة على المكتبة فى المرَّة الثانية، قد تحرَّوْا الأمر – ولو باتصال تليفونيٍّ مع المكتبة – لما كان شيءٌ من تلك الزوبعة قد افتُعل.

وعلى الجانب الآخر، فى إسرائيل، بدأت الصحفُ تنشر الموضوع نقلًا عن الصحيفة المصريَّة، فنشرت جريدتا: يديعوت أحرونوت، ومعاريف يوم ٢٠٠٣/١١/٢٧ الأخبار الكاذبة ذاتها، دون أن تتثبَّتَ منها.. فالتقت الغوغائيَّة والعشوائيَّة هنا، بمثيلتها هناك! وكان حَرِيًّا بالصحيفتين الإسرائيليتين وبالصحف الإسرائيليَّة الأخرى، التى تابعت بعد ذلك النشر فى الموضوع، أن تكلِّفَ نفسَها اتصالًا واحدًا بالمكتبة أو بأحد المسئولين فيها، ولو بالبريد الإلكترونى، لتعرفَ أنَّ الأمرَ كلَّه مختلقٌ ومفتعلٌ من بدايته.

ثم يتزايد الإيقاعُ الجنونيُّ للغوغائيَّة والعشوائيَّة وسوء القصد والنيَّة، مع هذا السيل العارم من مقالات الرفض والتهويل التى نشرتها المواقع اليهودية على شبكة الإنترنت، فإذا بالأصوات تعلو وتتصاخب، فتختلط الأوراق وتتفرَّع إلى قضايا أخرى لإحكام إدانتى! فتقول إنَّنى أُنكر (الهولوكوست) لأنَّنى كتبت يومًا أنَّ ضحايا هتلر من اليهود كانوا مليونَ شخصٍ (فقط!) وإنَّنى معادٍ للساميَّة.. ولسوف أعود لمناقشة هذه (القضايا) فى السطور التالية، ولكن قبل ذلك، أودُّ تأكيدَ أمرٍ يخصُّ (البروتوكولات) هو باختصار: إنَّ هذا الكتابَ المزيَّف أضرَّ بالعرب كثيرًا، ونفع كثيرًا الإسرائيليين. فقد أعطى الكتابُ للوعى العربى صورةً مزيَّفة عن اليهود، مالبث أن أدمنَها الناسُ وغابت عنهم الصورة الحقيقيَّة للمجتمع الإسرائيلى المجاور، ذلك المجتمع الذى يقيم مع الغرب العلاقات، ويبنى المفاعلات الذريَّة فى ديمونة.. يبكى سويعةً على ماضيه

الحزين، ويعمل ساعاتٍ فى بناء المستقبل بوادى السيليكون المسمَّى هناك (وادى الفلافل) الذى يتم فيه تطوير البرمجيَّات ومعدَّات الكمبيوتر.. وعلى الجانب الآخر، ظلَّ كتاب (البروتوكولات) دومًا، مُسَوِّغًا للانتحاب اليهودى الأبدى وحجةً قويَّة تبرِّر التباكى والرثاء للذات، وتؤكد اضطهادَهم على مرِّ العصور.

أمَّا الرأىُ العلمى فى مسألة تزييف (البروتوكولات) وعدم صحَّته، فقد استقر بعد دراساتٍ مطوَّلة إلى أنَّه وثيقةٌ مزوَّرة استفاد كاتبها من كتيِّب فرنسى كتبه صِحافيٌّ يدعى موريس جولى يسخر فيه من نابليون الثالث، عنوانه: حوار فى الجحيم بين ميكافيللى ومونتسكيو. وهناك اقتباسات مباشرة بل وحرفيَّة، من هذا الكتاب الساخر، موجودة بنصِّها فى البروتوكولات. ثم شاعت "البروتوكولات" بإيعازٍ من البوليس السرى الروسى، لتخويف الروس من اليهود ودفعهم للالتفاف حول القيصر.

وقد استقصى د. عبد الوهَّاب المسيرى مناقشةَ الأمر فى موسوعته اليهوديَّة، التى شاركتُ فيها بقلمى قبل سنوات. وقد انتهى من مناقشة الموضوع، إلى ما نصُّه: والإشارة إلى البروتوكولات واستخدامها فى الإعلام المضاد للصهيونيَّة، أمرٌ غير أخلاقى. لأنها وثيقة مزوَّرة. ولا توجد دراسة علميَّة واحدة (سواء بالعربيَّة أو بغيرها من اللغات) تثبت أنَّها وثيقة صحيحة.. وفى مقالة د. المسيرى بالموسوعة فوائدُ كثيرة، وقد استأذنتُه فى نشرها كاملةً هنا، وهى واردة فى ملحق هذا (التبيان) مع بقيَّة الملاحق.

* * *

ونأتى الآن لمسألة (الهولوكست) التى أُقحمت عَنوةً فى سياق هذه الزوبعة الزائفة. وقد أُقحمت (عَنوةً) وليس (مصادفةً) فقد تم إدخالها فى الموضوع بتعمُّدٍ واضح، من عشرات المواقع اليهودية على الإنترنت، لتأكيد اتهامى بمعاداة الساميَّة، لأننى أُنكر الهولوكوست. ومن ثَمَّ، فليس مستبعدًا عليَّ أن أضعَ البروتوكولات بجوار التوراة، وأقول إنَّها كتاب سماوى أهمُّ من التوراة! وهنا، لدينا نقطتان للمناقشة. الأولى معاداة الساميَّة، والأخرى الهولوكوست.. فلنبدأ بخرافة (العداء للساميَّة) تلك التهمةُ الجاهزة للانطباقِ على كلِّ من يخالف اليهودَ، ولو بالرأى:

بحسب ما ورد فى دائرة المعارف البريطانيَّة (الطبعة الإنجليزيَّة لسنة ١٩٦٦، الجزء ٢ ص ٨١، ٩٠) ودائرة المعارف الأمريكيَّة (سنة ١٩٨٣، الجزء ٢ ص ٧٤، ٧٥) ودائرة المعارف اليهوديَّة (١٩٩٢، ص ٥٨– ٦٢) وموسوعة اليهود واليهوديَّة والصهيونيَّة (الجزء الثانى ص ٣٣٣) وعديد من المصادر الخاصَّة بالمسألة اليهوديَّة والصهيونيَّة.. فإنَّ معاداة الساميَّة Anti-Semitism اصطلاحٌ سياسى حديث أشاعه اليهود لتأكيد شكواهم الأبديَّة من اضطهاد الشعوب الأخرى لهم. وقد كان أول مَنْ استخدمه هو الصِحافى اليهودى الألمانى "فيلهلم مار" فى كتابه الصادر سنة ١٨٧٩ بعنوان: انتصار اليهوديَّة على الألمانيَّة، من منظورٍ غير دينى.

والساميَّةُ مفهوم عرقى ينطبق على جماعة بشريَّة، المفترض أنهم انحدروا من (سام بن نوح) وقد تم تمييز الساميين أولًا على أساس لغوى لا عرقى، وذلك للتفرقة بين اللغات الساميَّة والآريَّة (الهندو/أوروبيَّة). وبالطبع، فإنَّ العربَ وفقًا

لهذا التصنيف غير العلمى للبشر، هم أكثر الأجناس ساميَّةً، ولا مسوِّغَ للقدح فى ساميَّتهم. بعكس اليهود الذين تُشكِّك الدراساتُ العلميَّة الأنثروبولوجيَّة والتاريخيَّة فى نقائهم العرقى، وهو الشك الذى تدعمه وقائعُ عديدة، منها وجود يهود ينتمون إلى "أعراقٍ آسيويَّة" مثل القبيلة الثالثة عشرة، أو "زنجيَّة" مثل يهود الفلاشا.

العجيبَ فى الأمر، أنَّ دلالة مصطلح العداء للساميَّة صارت تقع فقط على معاداة اليهودِ دون غيرهم. وهكذا لم يعد لفكرة (الساميَّة) وجودٌ خارج الجماعات اليهوديَّة، وكأنَّ العربَ ليسوا ساميين! ولا يخفى هنا، أنَّ الغرضَ من قصر دلالة المصطلح على اليهود، مع ما يتضمَّنه ذلك من سخفٍ ومجانبة للموضوعيَّة. كان لأغراضٍ سياسيَّة وأيديولوجيَّة، منها جنى أقصى ربحٍ ممكن من إشهار المصطلح (إشهار فى اللغة العربية تعنى: جعل الشىء مشهورًا، وتعنى أيضًا: رفع السيف فى وجه المخالف) ومنها تجنُّب الوقوع فى تناقض داخلى حين يشبُّ الخلاف مع العرب، وإلا صارت المسألةُ مجرَّدَ خلافاتٍ عائليَّة لا تستوجب قلق العالم على اليهود. وهو على كل حال قلق مزعوم، يسوِّغ دعم دولة إسرائيل التى تسوِّق لنفسها بأنها تلك الواحة الديمقراطيَّة المحاصرة بالبرابرة العرب! مع أنَّ الكلَّ يعرف أنَّ دعمَ الغرب لدولة إسرائيل، لا يأتى من القلق على اليهود المحاصرين، وإنَّما يأتى تلبيةً لمصالح غربيَّةٍ فى المنطقة العربيَّة. أعنى المنطقة التى كانت تُسمَّى (عربيَّة) ثم صارت تُعرف اليوم بالشرق الأوسط.. ولا معنى لأوسط أو أدنى أو أقصى، إلاَّ من زاوية الرؤية الغربيَّة (جغرافيًّا).

المهم، صارت تهمة معاداة الساميَّة ورقةً رابحة بيد متعصبى اليهود، تُستخدم دومًا بنجاح – وتخيب أحيانًا لعدم توفُّر الظروف المساعدة – وجنت منها إسرائيل كثيرًا من الفوائد، ولاتزال تجنى. بيد أنَّ الإفراطَ فى استخدام هذه (التهمة) سوف يؤدِّى لا محالةَ، إلى فقدان لمستها السحريَّة المؤثِّرة. وقد أفرط اليهودُ فى استخدامِها، حتى إنها اليوم فقدت بالفعل كثيرًا من فعلها السحرى، وظهرت فى المقابل مصطلحاتٌ مثل: هوس عداء الساميَّة، المبالغة فى الاتهام بالعداء للساميَّة.. إلخ. وإنَّنى كشخص عربى مفترض انتماؤه إلى العرق السامى، أرى أنَّ متعصبى اليهودَ هم أكثر الناس معاداةً للساميَّة. نظرًا لإفراطهم فى استخدام هذه التهمة الجاهزة للانطباق على مخالفيهم، ونظرًا لأنَّها تُنكر ساميَّتى المفترضة التى هى صفةٌ موروثة لنا نحن العرب، وصفةٌ مشكوكٌ فيها بالنسبة لكثير من اليهود.. إنَّ عداءَ هؤلاء اليهود للساميَّة يؤكِّده تحويلُهم الأمرَ إلى تجارةٍ ناجحةٍ صارت (الساميَّة) معه استثمارًا تجاريًّا وسياسيًّا، وفقدت معناها اللغوى العرقى والإنسانى. لم يعد لفظ الساميَّةُ دالًا على شىءٍ، إلا فى معرض دفاع الشخص الذى يتهمه اليهود بمعاداتها، عن نفسه.

وهنا، أرى من الواجب على اليهود أن يكفُّوا عن استخدام هذه التهمة الممجوجة، لأنَّ التماديَ فيها أكثرَ من ذلك، سوف يقود إلى مواقفَ أكثرَ حرجًا لا مجالَ لإيجاد حلولٍ لها. انظر مثلًا لو جاء يومًا مهووسٌ يهوديٌّ، أو أحدُ الظرفاءِ من كُتَّاب اليهود، فطالب بمصادرة القرآن الكريم باعتباره كتابًا معاديًا للساميَّة! وسوف يجد مستنداتٍ كثيرةً من آيات القرآن تؤكِّد العداءَ لليهود، ومن ثَمَّ، العداء المزعوم للساميَّة المزعومة.. آيات مثل ﴿ وَضُرِبَتْ

عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾سورة البقرة، آية ٦١ ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ البقرة ٧٩ ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقرة ٨٨ ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ سورة المائدة، آية ١٣ ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ المائدة آية ٤١ ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾سورة المائدة ٦٤ ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ المائدة ٧٨ ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ ﴾المائدة ٨٢ ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ ﴾سورة الجمعة، الآية الخامسة.. وهناك عشرات بل مئاتٌ، من الآيات القرآنيَّة التى ورد فيها ذكر اليهود. ومنها تلك الآيات التى قد يفاجئنا يومًا أحد المهووسين بأسطورة معاداة الساميَّة، فيطالب مستندًا لهذه الآيات بما لن يقبله أىُّ مسلم.. ومن ثَمَّ، يلتهب الصراع بأكثر مما هو ملتهب.

نخرج من ذلك كلِّه، إلى أنَّ اتهامى بمعاداة الساميَّة كان أمرًا سخيفًا فى مجمله وتفصيلاته وأنَّ دعوتى للكفِّ عن استخدام هذه التهمة، هو أمرٌ فى صالح الأطراف كافة. ولننتقل إلى المسألة الأخرى التى وعدتُ بمناقشتها، وهى إنكار الهولوكوست

* * *

كتب جابرييل بيتربرج المؤرخ والمفكّر اليهوديُّ ذو الأصل الأرجنتينى، مقالًا بعنوان "المحو Erasures" بدأه بأنَّ: هناك ثلاث أساطير مؤسِّسة لإسرائيلَ، تُشكِّل أساسَ بناء الثقافة الإسرائيليَّة حتى يومنا هذا. هى أساطير:

(١) إنكار المنفى، والانتقاص من أهمية الزمن الممتد بين خروج اليهود من فلسطين، وعودتهم إليها.

(٢) العودة إلى أرض إسرائيل، والوعد الإلهى بذلك. واعتبار هذه الأرض "خواء" حتى يعودَ إليها اليهود، ومن ثم فلابدَّ من تطهير أرض المعاد "التى عاد إليها اليهود" من شاغليها الفلسطينيين، باعتبارهم دخلاء على الأرض بعد عودة أصحابها.

(٣) العودة إلى التاريخ، بمعنى أنَّ اليهودَ فى زمن الشتات كانوا خارج التاريخ. ولا سبيل للدخول فى تاريخ الإنسانيَّة إلاَّ بالعودة إلى الأرض، فالأرض هى التاريخ بالنسبة لهم. وهى بالتالى، محل الإشغال (المؤقت) بالنسبة للعرب الفلسطينيين.

إلاَّ أنَّنى أرى أنَّ ثمة أسطورةً رابعة، لاتقلُّ أهميةً فى مجال (التأسيس) لدولة إسرائيل، عما عدَّده جابرييل بيتربرج، وقد تكون أهم هى أسطورة الانتحاب الأبدى، على الظلم الذى واجه اليهود عبر العصور. وهى أسطورة أهمُّ، لأنَّها أقدم وأدوم أثرًا فى تشكيل الوجدان اليهودى، بل هى ضاربةٌ بأعماقها فى التاريخ وتم استخدامُها على نطاق واسع خلال القرون السحيقة، وتجلَّت فى شكاوى اليهود وانتحابهم منذ عريضة الشكاوى التى جمعها الفيلسوف اليهودى "فيلون السكندرى" وحاول أن يتلوها على الإمبراطور

"كاليجولا" فقاطعه الأخير وصرفه من بلاطه.. مرورًا برسائل الشكوى المريرة التى تبادلها "موسى بن ميمون" مع يهود اليمن.. وصولًا إلى الإمعان فى إحياء ذكرى الهولوكوست.

كلمة هولوكوست مجلوبةٌ من أصلٍ يونانى يعنى حرفيًا: إحراقَ القربان بالكامل. وهى تُترجم إلى العبريَّة بلفظ (شواه) وإلى العربية بلفظ (المحرقة). ووفقًا لمعجم أكسفورد الكبير OED وقاموس أصول الألفاظ الإنجليزيَّة لإيريك بارتريدج، فإنَّ دلالة الكلمة صارت منذ النصف الثانى من القرن العشرين، تقع تحديدًا على الإبادة النازيَّة لليهود. وصار معسكر الاعتقال النازى أوشفيتش Auschwitzعلامةً على تلك المحرقة، التى صارت بدورها علامةً على قمَّة التراجيديا الإنسانيَّة. حتى إنَّ فيلسوفَ مدرسة فرانكفورت، اليهودى الشهير "تيودور أدورنو" يقول فى عبارة شهيرة له: لاشِعْرَ بعد أوشفيتش.. وهى لعمرى عبارة مؤثرة، شديدة الانفعاليَّة، وقد ذكَّرتنى فور قراءتى لها أول مرَّة، بقول الشاعر الفلسطينى محمود درويش فى أنشودته الشعريَّة البديعة "مديح الظلّ العالى" عن إحدى المذابح الفلسطينية ما نصُّه:

صابرا، لم تعد جسداً
صابرا، تقاطع شارعين على جسد
وصابرا، لا أحد
صابرا، هويَّةُ عصرنا حتى الأبد.

وقد قلت يومًا، إنَّ ضحايا النازى من اليهود، كانوا مليونَ شخصٍ. كان ذلك فى مقالة لى، نُشرت منذ سنواتٍ بعيدة.. واليوم، تُستخدم هذه المقولة

ضدّى بضراوةٍ من جهة اليهود، لتأكيد هذه التهمة الممجوجة (عداء الساميّة) التى أوضحتُ فيما سبق أنّه لامعنى لها. وسأوضّحُ الآن رأيى بالتفصيل فى قضية المحرقة، أو ما اصطُلح على تسميته هولوكست.

تردِّد الدعاياتُ اليهوديَّة على مسامع العالم، أنَّ عدد ضحايا الهولوكوست الذين أدخلهم هتلر أفران الغاز، هو ستةُ ملايين يهودى. وإنْ كان بعض اليهود يقول بعدد أقلّ، بل إنّ "يهودا باور" مدير قسم بحوث الهولوكوست فى معهد دراسات اليهود فى العصر الحديث (التابع للجامعة العبريّة) يقول بوضوحٍ إنّ رقم ستة ملايين لا أساسَ له من الصحّة، وإنّ الرقم الحقيقى أقلُّ من ذلك.

والذى أعتقدُه، أنّ القضية ليست فى العدد المختلف عليه. وإنّما فى دلالة عمليّة (الإبادة المنظّمة) التى هى عملٌ إجرامى بكل المقاييس، سواء كان عدد القتلى مليونًا واحدًا أو ستة ملايين، ونحن كمسلمين نؤمن بأنّه، وفقًا لما جاء فى القرآن الكريم ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا.. ﴾ (سورة المائدة، آية ٣٢) فالعبرة ليست بالعدد.

ومن ناحيةٍ أخرى، معروفٌ أنّ ضحايا محرقة النازىّ بترتيب الأكثر فالأقلّ، هم: البولنديون، السلاف، اليهود، الغجر، العجزة، المنحرفون جنسيًا.. وكان الدور سيأتى حتمًا على العرب لو انتصر الألمان فى موقعة (العلمين) بمصر، وكان العرب حتمًا – لكثرتهم العدديّة- سيتصدّرون القائمةَ، إذ أن النازيّةَ لم تكن لتفرّقُ بين اليهود والعرب.. فكلاهما عند هتلر: ساميٌّ.

وجدير بالذكر هنا، أنّ اليهودَ (القرّائين) لم يكونوا عند النازيّة أهلًا

للمحرقة، بل فكّرت النازيّة بجدية فى التعامل معهم، باعتبارهم أهلًا للتعاون مع الجنس الآرى الراقى! وجدير بالذكر أيضًا، أنَّ بعض ضباط النازيّةِ كانوا يهودًا. وجدير بالذكر كذلك، أنَّ الملك محمد الخامس عاهل المغرب رفض تسليم اليهود للنازى، فكانت بلاد المغرب مهربًا لهم. فهل يأتى يوم، تقوم فيه هوليوود بإنتاج فيلم عن موقفه الإنسانى، على غرار تحفة ستيفن سبيلبرج السينمائيّة: قائمة شندلر.

إنَّ الإنسانيّةَ بائسةٌ ومُبتلاة بعظائم "هولوكوست" يَشيب لها السامعون، وقد كان (اليهود) مرّةً واحدة، ضمن ضحايا تجلٍّ واحدٍ من تجليّات هذه الإبادة أو تلك المحرقة. ومن قبل ذلك، ومن بعده، هناك عشرات التجليّات للهولوكوست فى التاريخ القديم والحديث.فمن ذلك: ذَبْحُ هولاكو لمليون وثمانمائة ألف مسلمٍ ببغداد.. أهرامات الجماجم التى بناها تيمور لنك خلال فتوحاته، ليتباهى بكثرة ضحاياه الذين تجاوزا مئات الألوف.. فناء القبائل الهنديّة على يد المستعمر الأبيض لأمريكا الشماليّة.. مجازر الصرب ضد المسلمين فى البوسنة.. مجازر كمبوديا.. جرائم صدّام حسين ضدَّ الأكراد.. أنهار الدم فى أفغانستان.. قتل الجيش الإسرائيلى للفلسطينيين بما فيهم الأطفال الرُّضع.

إنّنى أدعو جيرانَنا الجدد "اليهود" أن يكفُّوا عن التباكى على محرقتهم، فقد مرّت محرقة النازى من نصف قرن، وكانت حصيلة (تعويضهم) خلال هذه الفترة وفيرة. بينما المحارق التى تبيدُنا نحن العرب والمسلمين، لا تكاد تتوقّف طيلةَ الزمان. وآخرها ما تقوم به اليوم دولة إسرائيل، ضدَّ العرب فى الأرض المحتلة ..ولن نعوّض يومًا عنها.

والعجيب فى الأمر، أنَّ اليهودَ لم يثأروا لمحرقتهم من المسئولين عنها، وإنما اكتفوا بتحصيل أموال (التعويض) عنها من ألمانيا، ويقال إنَّ حصيلتها بلغت حتى الآن ما يزيد عن المائة مليار دولار، دفعتها ألمانيا لإسرائيل تكفيرًا عن ذنب تلك اللحظة المؤسفة فى التاريخ الألمانى المجيد! واليوم، يثأر اليهود من الفلسطينيين والعرب عامة، الذين لا يد لهم فيما جرى على يد النازى.. اليوم، تحتفل إسرائيل سنويًا (يوم الرابع من شهر آيار/مايو) بذكرى الهولوكوست، وفى اليوم التالى مباشرة (الخامس من آيار/ مايو) تحتفل بعيدها القومى: إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين.. فتأمَّل.

وفى المقابل من ذلك، فنحن العرب والمسلمين لا أحد سيدفع لنا تعويضًا عن المحارق التى التهمتنا قديمًا، وتلتهمنا اليوم. ولا أحد منَّا سيقبل تعويضًا ماليًا عن أرواحنا التى أُزهقت سابقًا، وتُزهق اليوم تحت بصر وسمع العالم أجمع، وتتناقلها يوميًّا نشرات الأخبار التلفزيونيَّة.. ولا أحد غيرنا يجرؤ على الكلام.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن طبيعة العلاقة التاريخيَّة بين اليهود والعرب، كانت تقتضى من (شعب الله المختار) أن يتعاملَ مع العرب والمصريين خصوصًا، على نحو أفضل كثيرًا مما عليه الحال اليوم. ولا أبالغ إن قلتُ إنَّ اليهود عليهم أن يكونوا شاكرين وممتنين لمصر. فوفقًا لما يرد فى النصوص الدينيَّة (اليهوديَّة) فإنَّ أرض مصر احتضنت أجدادهم الأولين، قرونًا طويلة، ثم عانوا كغيرهم من ظلم بعض الفراعين. فسرقوا الذهب من المصريين وهربوا به، ولم يطالبهم أحدٌ به حتى الآن مطالبةً جادة.. ووفقًا لما يرد فى تاريخنا

(المشترك) الذى لا سبيل لإنكاره، تمَّ على أرض مصر إحياء اليهوديَّة عدَّة مراتٍ! ففى العصور السحيقة أُنجزت فى الإسكندرية القديمة الترجمة السبعينية للتوراة، من اللغة العبريَّة التى كانت قد انطمست، إلى اللغة اليونانيَّة التى كانت لغة الثقافة الإنسانيَّة آنذاك. ولولا هذه الترجمة (الإسكندرانيَّة) لكانت اليهوديَّة قد اضمحلت، وربما اختفت.. ومن هذه الترجمة السبعينيَّة، عرف أشهر فيلسوف يهودى قديم (فيلون السكندرى) الديانة اليهوديَّة، وقام بتأويل نصوص التوراة. تلك النصوص التى كانت قد أوشكت على التجمُّد، فنفخ فيها "فيلون" روح الدلالة، مستندًا إلى التراث الفلسفى الذى تشكَّل فى الإسكندريَّة القديمة، وعُرف باسم الأفلاطونية المحدثة. ومعروف أنَّ النصوصَ الدينيَّة إن لم تتم لها عمليَّات التأويل والتفتيح الدلالى المتجدِّد، فإنَّها تخبو ويغدو (الدين) آنذاك مسألة طقسيَّة، لا تشارك فى صياغة (ثقافة) مَنْ يؤمنون به.. وقد كان فيلون السكندرى يهودى الديانة، يونانى الثقافة، سكندرى المولد والمنشأ والإقامة. فجمع فيلون بين ذلك كلِّه فى مزيجٍ فكرى، نجحت معه اليهوديَّةُ فى البقاء من بعده قرونًا تالية، فكان هذا الفيلسوف السكندرى بحق، علامةً على طريق اليهوديَّة. بل اعتبره البعض من مقدِّمات المسيحيَّة، نظرًا لأثره الفكرى فى آباء الكنيسة من أمثال القديس أوريجين السكندرى.

وعلى أرض مصر، عاش أهم فيلسوف يهودى فى العصور الوسطى: موسى بن ميمون (ميمونديز) الذى فرَّ إلى مصر من الأندلس، فعاش وكتب أعماله كلَّها ونال شهرةً فى عصره، حتى قيل إنَّه موسى الثانى. واشتهرت من زمنه عبارةٌ يهوديَّة تقول: ما جاء منذ موسى حتى موسى مثل موسى!

وكان موسى بن ميمون المصرى الإقامة، مُفكّرًا يهودى الديانة- بل حاخامًا يهوديًا- إسلامى المحتوى، حتى إنَّ بعضَ أساتذتنا فى مجال الفلسفة الإسلاميَّة مثل د. إبراهيم بيومى مدكور كان يعده فيلسوفًا إسلاميًا، لا مسلمًا، نظرًا لقوة تأثير الفكر الإسلامى فى كتاباته ومؤلفاته التى أشهرها كتابه دلالة الحائرين. وقد أحدثت أعمال موسى بن ميمون انتعاشةً كبرى فى التراث اليهودى، فبقى هذا التراث من بعده قرونًا تالية.. وما ينطبق على موسى بن ميمون من كونه انعكاسًا للفكر الإسلامى فى صورة يهوديَّة، ينطبق أيضًا على الفيلسوف اليهودى البغدادى، الأقل شهرةً ابن كمونة.

وفى العصر الحديث وحتى قيام دولة إسرائيل فى فلسطين، كان اليهود آمنين بمصر.. يتوالدون.. يتاجرون.. يكسبون.. يتعلّمون.. يسافرون.. يشاركون المصريين خير أرضهم. ولم يعرف تاريخنا الحديث حالة استهداف جماعى، لليهود العرب.

من هذه الزاوية، ليس أنَّه من قبيل المبالغة أن نقولَ إنَّ على اليهود اليوم، أن يكونوا شاكرين وممتنين لمصر. خاصةً إنَّ مصرَ كانت أولَ مَنْ فكَّر فى العيش بسلام لكل شعوب المنطقة، بما فى ذلك الإسرائيلية. واختم هذا (التبيان) بقولى:

إنَّ الأمورَ ينبغى لها أن تسيرَ، بعكس ما تجرى اليوم به. فصحيحٌ أنَّ حربًا اندلعت بيننا لسنوات، ثم انطفىء أوارُها ومددنا لهم أيدينا قبل سنوات بالسلام، فكان. فليكن فى الأرض (المجهدة) التى نعيش عليها، السلام. فثمة أمورٌ إنسانيَّة كثيرة، أهم من التنازع، علينا إنجازها.

ومن زاويتى، أرى أنَّه لامجال للوصول إلى حَلٍّ بين الفريقين، إلا بأن يتنازل اليهود عن بعض الأساطير وأن يفرِّط العرب فى بعض الوقائع. فيلتقى الجمعان فى منطقة متوسطة بين الوقائع العربية والأساطير الإسرائيليَّة. والصعوبة هنا، أن التوجه للمنطقة الوسطى (خطر) من وجهة نظر الفريقين، فالعرب يرونَ الحال الواقع هو مستندهم الوحيد لمحاولة (البقاء) المستميتة، واليهود يرونَ التنازل عن الأسطورة هو تخلى عن مستند (العودة) التى ظل اليهوديُّ يحلم بها منذ قرون.. ومع ذلك، فلا مجال للخروج من المأزق، إلا بالتنازل المطلوب من كل فريق: التنازل الصعب.[1]

حقيقة البروتوكولات

كلمة بروتوكول كلمة إنجليزية تعنى اتفاقيَّة. وبروتوكولات حكماء صهيون وثيقة يُقال إنَّها كتبت عام ١٨٩٧ فى بازل بسويسرا، أى فى العام نفسه الذى عُقد فيه المؤتمر الصهيونى الأول. بل يزعم البعض أنَّ "تيودور هرتزل" تلاها على المؤتمر، وأنها نُوقشت فيه. بل وتذهب بعض الآراء إلى التأكيد على أن المؤتمرات الصهيونيَّةَ المختلفة، إن هى إلاَّ مؤتمرات حكماء صهيون هذه وأن الهدف من المؤتمر السرى الأول، الذى ضمَّ حاخامات اليهود، هو وضع خطة مُحكمة لإقامة إمبراطورية عالميَّة

(١) هنا، تنتهى المقالة المنشورة بمجلة الهلال.. وما يأتى بعد ذلك من استعراض لطبيعة هذا الكتاب (تحت عنوان :حقيقة البروتوكولات) منقول بنصه من موسوعة د. عبد الوهاب المسيرى: اليهودية والصهيونية، مادة: بروتوكولات..

تخضع لسلطان اليهود وتُديرها حكومة عالمية يكون مقرها القدس.

وتقع البروتوكولات البالغ عددها أربعًا وعشرين بروتوكولًا، فى نحو مائة وعشر صفحات. ونُشرت لأول مرةٍ عام ١٩٠٥ مُلحقًا لكتاب من تأليف "سيرجى نيلوس" وهو مواطن روسى، ادَّعى أنه تسلَّم المخطوطة عام ١٩٠١ من صديق له حصل عليها من امرأةٍ (مدام ك) ادَّعت أنَّها سرقتها من أحد أقطاب الماسونيَّة فى فرنسا. لكن نيلوس نفسه أخبر أحد النبلاء الروس بأنَّ هذه المرأة، أخذتها من رئيس البوليس السرى الروسى فى فرنسا، وأنَّ الأخير هو الذى سرقها من أرشيف المحفل الماسونى. وقد كانت لنيلوس اهتماماتٌ صوفيَّة متطرِّفة، كما كان غارقًا فى الدراسات الخاصة بالدلالات الصوفيَّة للأشكال الهندسيَّة. وقد لاقت البروتوكولات رواجًا كبيرًا بعد نشوب الثورة البلشفية التى أسماها البعض آنذاك الثورة اليهوديَّة، إذ عزا الكثيرون الانتفاضات الاجتماعية التى اجتاحت كثيرًا من البلدان الأوروبيَّة إلى اليهود.

وانتقلت البروتوكولات إلى غرب أوروبا عام ١٩١٩ حيث حملها بعض المهاجرين الروس. وبلغت البروتوكولات قمَّةَ رواجِها فى الفترة الواقعة بين الحربين، حينما حاول كثير من الألمان تسويغ هزيمتهم، بأنَّها طعنة نجلاء من الخلف، قام بها اليهود المشتركون فى المؤامرة اليهوديَّة الكبرى أو العالمية. وقد أصبحت البروتوكولات أكثر الكتب رواجًا فى العالم الغربى بعد الإنجيل، وتُرجمت إلى معظم لغات العالم، وضمن ذلك العربية حيث ظهرت عدَّة طبعاتٍ منها. وحازت البروتوكولات اهتمامَ بعض المشتغلين بالتأليف وبالإعلام حيث أشاروا إليها باستحسانٍ كبير، وكأنَّها وثيقةٌ ذات شأنٍ كبير. ولحسن

الحظ، لايوجد مركز دراسات عربى واحد أعارها أىَّ اهتمام، ولايتم نشرها إلا من خلال دور نشر تجاريَّة.

والرأى السائد الآن فى الأوساط العلميَّة التى قامت بدراسة "البروتوكولات" دراسة علميَّة متعمِّقة، هو أنَّ البروتوكولات وثيقةٌ مزوَّرة. استفاد كاتبها من كتيِّبٍ فرنسى كتبه صِحافىٌّ يُدعى "موريس جولى" يسخر فيه من نابليون الثالث بعنوان: حوار فى الجحيم بين ماكيافللى ومونتسيكو، أو السياسة فى القرن التاسع عشر. نُشر فى بروكسل عام ١٨٦٤، فتحوَّل الحوار إلى بروتوكول وتحوَّل الفيلسوف إلى حكماء صهيون. وقد اكتُشفت أوجه الشبه بين الكتيِّب والبروتوكولات، حيث تضمَّنت هذه الأخيرة اقتباساتٍ حرفيَّةً من الكتاب المذكور، وأحيانًا تعبيرات مجازيَّة وصورًا منه.

والرأى السائد الآن أنَّ، نشرَ البروتوكولات وإشاعتها إنما تم بإيعاز من الشرطة السياسية الروسية، للنيل من الحركات الثورية والليبرالية. ومن أجل زيادة التفاف الشعب حول القيصر والأرستقراطيَّة والكنيسة، وبتخويفهم من المؤامرة اليهودية الخفية العالمية. وقد قمنا بدراسةٍ سريعة لعناصر خطاب البروتوكولات (الأسلوب والمفردات والصور.. إلخ)، فوجدنا أنَّ هناك من الدلائل ما يدعم وجهة النظر القائلة بأنَّها وثيقةٌ مزيَّفة:

١- يُلاحَظ أنَّ البروتوكولات وثيقة روسيَّة بالدرجة الأولى.

(أ) فكاتب الوثيقة لايعرف شيئًا عن المصطلح الدينى اليهودى، ولا يستخدم أيَّة كلماتٍ عبريَّة أو يديشيَّة. وهناك إشارتان للإله الهندى فشنو،

وإشارة واحدة لأسرة داود. وبطبيعة الحال، يمكن إثارة القضيَّة التالية: إذا كانت البروتوكولات وثيقةً سريَّة، فلماذا لم يكتبها حاخامات اليهود بالعبرية أو الآراميَّة أو اليديشية، ليضمنوا عدم تَسرُّبها؟ ومما يجدر ذكره أن كثيرًا من يهود روسيا آنذاك، كانوا يتحدثون اليديشية[1] ولايعرفون الروسيَّة. وكان "حزب البوند" أكبر الأحزاب العمالية فى أوروبا، يدافع عن حقوق العمال من أعضاء الجماعة اليهوديَّة، ويُطالب بالاعتراف باليديشيَّة باعتبارها لغتهم القوميَّة، وباعتبارهم أحد شعوب الإمبراطوريَّة الروسيَّة.

(ب) الموضوعات الأساسيَّة المتواترة فى البروتوكولات، موضوعات روسيَّة فهناك دفاع عن الاستبداد المطلق، وعمَّا يُسمَّى الأرستقراطيَّة الطبيعيَّة الوراثيَّة، وهجوم شرس على الليبراليَّة والاشتراكيَّة. وهو ما يبيِّن أنَّ اهتمامات الكاتب روسيَّة تمامًا، وتعكس رؤية الطبقة الحاكمة الروسية فى السنين الأخيرة من حكم النظام القيصرى.

(ج) هناك هجوم على الكنيسة الكاثوليكيَّة واليسوعيَّة، وهو ما يدل على أثر التربة المسيحيَّة الأرثوذكسيَّة السلافيَّة، التى كانت تناصب الكاثوليكية العداء.

(د) ثمة هجومٌ شرس على الماسونيَّة، التى كانت آنذاك جزءًا لايتجزَّأ من الحركة الليبرالية والثوريَّة الروسيَّة.

---

(١) اليديشية، لغة يهود أوروبا (الإشكناز) كان يتحدث بها قرابة أربعة ملايين من اليهود .

(هـ) هناك هجوم شديد على "دزرائيلى" الذى كان شخصيَّةً مكروهة تمامًا من النخبة الحاكمة فى روسيا. لأنه كان يساند الدولة العثمانيَّة، حتى تظل حاجزًا منيعًا ضد توسُّع الإمبراطورية الروسيَّة.

٢- كما أنَّ نبرةَ البروتوكولات ساذجةٌ للغاية، فمن الواضح أن كاتبها الذى زيَّفها لا يُجيد التزييف، فقد حاول أن يبين الخطر العالمى لليهود. وحتى يُعطى وثيقته درجةً من المصداقيَّة، جعل حكماء صهيون (لا أحد سواهم) يتحدَّثون عن الخطر اليهودى، حتى يبدو الأمر كلُّه وكأنه "شهد شاهد من أهلها" غير أنَّه لم يكن على درجةٍ كبيرة من الذكاء فى عملية تزييفه هذه:

(أ) ففى الصفحة الأولى من البروتوكول الأول ينطق حكيم صهيون الأول بالكلمات التالية: يجب أن يُلاحظَ أنَّ ذوى الطبائع الفاسدة من الناس، أكثر عددًا من ذوى الطبائع النبيلة. وهذه ملحوظة تبيِّن الشرَّ المتأصِّلَ فى صاحبها، ولكن السؤال البدهى الذى يطرح نفسه هو: لماذا يُصِرُّ كبير حكماء صهيون على نقل هذه الآراء لحكماء صهيون؟ أليس كل الحاضرين من الأشرار الذين لا توجد شبهةٌ فى شرهم؟

والسذاجة نفسها تتبدَّى فى الملاحظة التى ترد بعد عدَّةِ صفحاتٍ، حيث يقول كبير الحكماء: إن الغاية تبرر الوسيلة، وعلينا (ونحن نضع خططنا) ألا نلتفت إلى ما هو خيِّر وأخلاقى بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضرورى ومفيد.. ومَّرةً أخرى، لماذا يكلِّف كبير الحكماء نفسه بتذكير الحاضرين من الحاخامات، بمثل هذه البدهيَّات المتداولة بين الأشرار فى كلِّ زمان ومكان؟

أم أنَّه لاحَظ بعض علامات الخير بينهم، فأراد أن يحذِّرهم منها؟

(ب) يحاول واضع البروتوكولات أن يضخِّمَ اليهودَ وقوَّتهم ليخيفَ الناس منهم فيجعلهم ينسبون إلى أنفسهم فى البروتوكول الثانى كلَّ شرٍّ، فيقول: نجاح داروين وماركس ونيتشة قد رتَّبْناه من قبل. ولكنه ينسى نفسه بعد قليل، وتتبدل النبرة إذ يبدأ اليهود فى توجيه الاتهامات لأنفسهم فى البروتوكول الثانى نفسه: من خلال الصحافة اكتسبنا نفوذنا وبقينا نحن وراء الستار، وبفضل الصحافة كدَّسنا الذهب ولو أنَّ ذلك سبَّب أنهارًا من الدم. وهذه فى الواقع عريضة اتهام موجَّهةٌ للذات، فلماذا يكلِّف كبيرُ الحكماء خاطره ليقدِّمَها لبقيَّة أعضاء المجتمع، الذين يعرفون ذلك مسبقًا؟ ولماذا يُصر على أن يُخبرهم فى البروتوكول الثالث، أنَّ أسرارَ تنظيم الثورة الفرنسيَّة معروفةٌ لنا جيِّدًا لأنَّها من صنع أيدينا، ونحن من ذلك الحين نقود الأمم قدمًا من فشل إلى فشل، حتى إنَّهم سوف يتبرَّأون منَّا! فمن يمكن أن يصف حركته، بأنها حركة لقيادة الأمم من فشلٍ إلى فشل؟ ويُصِرُّ على أنَّ هذه الحركة ستودى بهم؟ ثم يضيف فى البروتوكول التاسع: إن لنا طموحًا لا يُحدَ، وشرَهًا لا يُشبع، ونقمة لا ترحم، وبغضاء لا تُحس. إنَّنا مصدر إرهاب بعيد المدى. وإننا نُسخر فى خدمتنا أُناسًا من جميع المذاهب والأحزاب. ثم يتطوَّع بتأكيد ما يلى: لقد خدعنا الجيل الناشئ من الأمميين، وجعلناه فاسدًا متعفنًا بما علمناه من مبادئ.

ويمكننا الآن أن نعرضَ للأفكار الأساسيَّة فى "البروتوكولات" التى تؤكد أنَّ السياسةَ لا تخضع للأخلاق، وأنَّ اليهودَ سينفِّذون مخطَّطَهم الإرهابى عن

طريق الغش والخداع. فعلى مستوى المجتمع، سيقومون بتقويض دعائم الأسرة وصلات القرابة، وإشاعة الإباحيَّةِ، واستغلال الحريَّات العامَّة، وتخريب المؤسسات المسيحيَّة، وإفساد أخلاق العالم المسيحى الأوروبى. أما على مستوى الدولة، فإنَّهم سيسعَوْنَ إلى تقويض كيان الدول عن طريق الإيقاع بينها بحيث تندلع الحروب، على ألاَّ تؤدِّى هذه الحروب إلى تعديلاتٍ فى حدود الدول أو إلى مكاسب إقليمية، ليتمكن رأس المال فقط من الخروج بالغنائم. وينبغى التركيز على المنافسة فى المجتمع، وعلى تصعيد الصراع الطبقى، ليجرىَ الجميع نحو الذهب الذى لابدَّ أنَّ اليهود سيحتكرونه، وتُصب المؤسسات الدينيَّة والسياسيَّة بالاهتراء ويسود رأس المال كلَّ شىء.

وتهتم البروتوكولات فى المراحل الأولى من المخطَّط بأن يُسيطر اليهودُ على الصِّحافة ودور النشر وسائر وسائل الإعلام، حتى لا يتسربَ إلى الرأى العام العالمى إلا ما يريدونه. كما أنَّها ترى ضرورة أن يُسيطر اليهودُ على الدول الاستعمارية، وأن يسخِّروها حسبَ أهوائهم. كما أنَّهم سيسيطرون أيضًا، بطبيعة الحال، على الدول الاشتراكيَّة المعادية للاستعمار. والبروتوكولات تجعل اليهود مسئولين عن كلِّ شىء: عن الخير والشر، والثورة والثورة المضادة، والاشتراكيَّة والرأسماليَّة! فالبروتوكول السادس مثلًا، يقول: كى نخرِّبَ نحن اليهود، صناعة الأغيار سنزيد من أجور العمال(اتجاهات اشتراكيَّة) ونعرِّض الصناعة للخراب والعمال للفوضى (اتجاهات فوضويَّة).

ومن الواضح أنَّ البروتوكولات ليست نقدًا لليهود بمقدار ما هى تعبير عن إحساس الإنسان الأوروبى فى أواخر القرن التاسع عشر بأزمته، وبقدر ما

هى تعبير عن إداركه السطحى المباشر لها، بعد تزايد معدلات العلمنة فى الغرب وبعد تفكُّك المجتمع التقليدى الذى كان يوفِّر له قدرًا كبيرًا من الطمأنينة، حتى وإن سلبه حريَّته وفرصه فى الحراك الاقتصادى، فالمجتمع الذى يحاول اليهود فرضَه على العالم، حسبما جاء فى البروتوكولات، ليس عالمًا شريرًا بشكل شيطانى ميتافيزيقى. وإنما هو فى الواقع العالم الغربى الصناعى الذى سادت فيه قيم العلمانيَّة والنفعيَّة، ومن هنا كان الجمع بين الرأسماليَّة والاشتراكيَّة باعتبارهما نظامين يبشِّرُ بهما اليهود، كما كان الجمع بين نتيشه وماركس باعتبارهما فيلسوفين يبشِّرُ اليهود بفكرهما. فعلى الرغم من الاختلافات العميقة بين النظامين المذكورين، والاختلاف بين الفيلسوفين، فإنَّ العامل المشترك الأعظم (أو نقطة البدء أو التلاقى) هو تأسيس مجتمع علمانى يستند إلى قيمتى المنفعة واللذة، لا إلى القيم الدينية الأخلاقيَّة المطلقة.

..والفكرة الأساسيَّة فى البروتوكولات هى فكرة الحكومة اليهوديَّة العالمية، لكن المعروف تاريخيًا أنه لم تكن هناك سلطةٌ مركزيَّة تجمع سائر يهود العالم، بعد تحطيم الهيكل على يد نبختنصر عام ٥٨٦ ق.م. وذلك بسبب طبيعة الوجود اليهودى فى العالم، حيث انتشر اليهود على هيئة أقليات دينية لا يربطها رباط قومى. وقد كان لكل أقلية، محاكمُها وهيئاتها الخاصَّةُ التى تقوم برعاية شئونها. ولكنَّ اليهود لايختلفون فى هذا، عن أيَّةِ أقليَّةٍ دينِّية أو جماعة وظيفيَّة أخرى.

وهنا، يمكن أن نُثير قضيَّةً مهمَّة، هى قضية الوسائل: هل للجماعات اليهوديَّة فى العالم من القوَّةِ، ما يمكِّنها من تنفيذ هذا المخطط الإرهابى

العالمى الضخم؟ إن الدارس لتواريخ الجماعات اليهودية يعرف أنها كانت دائمًا قريبةً من النخبة الحاكمة، لا بسبب سطوتها أو سلطانها، وإنما بسبب كونها أداةً فى يد النُخب، ولأنها لم تكن قط قوة مستقلَّةٍ أو صاحبة قرار مستقل.

والإشارة إلى البروتوكولات واستخدامها فى الإعلام المضاد للصهيونيَّة، أمرٌ غير أخلاقى لأنها وثيقة مزوَّرة، ولا توجد دراسة علميَّة واحدة (سواء بالعربية أو بغيرها من اللغات) تُثبت أنَّها وثيقةٌ صحيحة. ولكن، وحتى ولو كانت البروتوكولات وثيقةً صحيحة، فإنَّ من يستخدمُها يفقد مصداقيته وفعاليته أمام الرأى العام الغربى الذى لا يؤمن بصحتها. كما لا يمكن إثبات أن هذه الوثيقة تعبر تعبيرًا حقيقيًا عن دوافع أغلبية أعضاء الجماعات اليهوديَّة فى العالم، أو أنهم يأخذون بها كوثيقة ملزمة تحدد سلوكهم وأهدافهم. وبسبب السمعة الشائنة للبروتوكولات، فإن الصهاينة يصفون أى نقدٍ موجَّه إليهم بأنَّه وقوع فى أحابيل البروتوكولات. ومن الطريف أن هناك وثائق يتداولها بعض أعضاء الجماعات اليهودية تحتوى على آراء أكثر تآمريَّةً من البروتوكولات مثل ما يُسمَّى كتاب التربية الذى يوزَّع فى إسرائيل فى الوقت الحالى. كما يحوى التلمود مقطوعاتٍ عنصريَّةً إلى أقصى درجة، ولكن يبدو أن مروجى البروتوكولات لا يعرفون عنها شيئًا. وهى على كلّ كتابات لا يعرف عنها معظم أعضاء الجماعات اليهوديَّة بدورهم شيئًا، ولا يتداولها فى الغالب إلا بعض العنصريين الموجودين فى كلِّ المجتمعات وبين أتباع كل العقائد.

وثمة رأىٌ يذهب إلى أنَّ الصهاينةَ يقومون بالترويج لهذه البروتوكولات،

لأنها تخدم المشروع الصهيونى الذى يهدف إلى ضرب العزلة على اليهود، وتحويلهم إلى مادَّةٍ خام صالحةٍ للتهجير والتوطين فى فلسطين المحتلَّة. كما أنَّ كثيرًا من الافتراضات الكامنة فى البروتوكولات، مثل الشعب اليهودى و الشخصيَّة اليهوديَّة و المصالح اليهودية، هى جميعًا افتراضات صهيونيَّة أساسيَّةٌ. والهجوم عليها هو فى واقع الأمر، تسليم غير مباشر بوجودها.

وسواء أكان هذا الرأى الأخير صحيحًا أم كاذبًا، فإنَّ ترويجَ البروتوكولات يخدم المصالح الصهيونية من الناحية العمليَّة. ويتم الآن فى العالم العربى، تداول كمّ هائلٍ من الكتابات كلُّ هدفها إشاعةُ الخوف من اليهود والصهيونية، بتبنِّى رؤية بروتوكوليةٍ تنَسب إلى اليهود قوى عجائبيَّةً. ويساهم بعض أعضاء النخب الحاكمة فى الترويج لهذه البروتوكولات، لتسويغ العجز العربى والتخاذل أمام العدو الصهيونى، دون أن يُدركوا أنَّهم بهذا إنما يخدمون مصلحة العدو. وقد صرَّح المعلِّق السياسى الإسرائيلى يوئيل ماركوس فى جريدة هآرتس (٣١ ديسمبر ١٩٩٣) بأنَّ كثيرًا من الدول تغازل إسرائيل وتحاول أن تخطب ودها، نظرًا لأن حكام هذه الدول يؤمنون بأن البروتوكولات وثيقةٌ صحيحة، وأنَّ ما جاء فيها هو المخطط الذى يتحقَّقُ فى العالم والذى سيؤدى إلى سيطرة اليهود، وأن اليهود يتحكمون بالفعل فى رأس المال العالمى وفى حكومة الولايات المتحدة. ومن ثم، فالطريق إلى المعونة الأمريكية، يمر من خلال اللوبى الصهيونى والدولة الصهيونية.. ويُضيف ماركوس معلِّقًا على هذه المفارقة: إن البروتوكولات، بسبب أثرها هذا الذى يولِّد الرهبة فى النفوس ويدفع الناس لمغازلة إسرائيل

واليهود تبدو كأنَّ الذى كتبها لم يكن شخصًا معاديًا لليهود، وإنَّما يهوديٌّ ذكيٌّ يتَّسمُ ببعد النظر!

وقد أثبتت الانتفاضة الفلسطينيَّةُ أنَّ اليهودَ بشر، وأنَّ إلحاقَ الأذى بهم وهزيمتهم أمر ممكن، وأنهم قد يُهاجمون عدوهم كالصقور حينما تسنح الفرصة، ثم يفرُّون كالدجاج حينما يدركون مدى قوته وإصراره. والاستمرار فى إشاعة الرؤية البروتوكوليَّة هو نوع من الإصرار على مد يد العون للعدو الصهيونى، وعلى التنكُّرِ لإنجازات الانتفاضة.

ولا يمكن للمسلم الملتزم بتعاليم دينه، أن يوجه الاتهام إلى أىّ إنسانٍ جُزافًا ودون قرائن، كما لايمكن لرؤيةٍ دينيَّة حقَّةٍ أن تحكم على الفرد باعتباره تجسُّدًا لفكرة، إذ يظلُّ كلُّ إنسانٍ مسئولًا عن أفعاله. وقد عرَّف الإسلامُ حقوق أعضاء الأقليات خصوصًا أهل الكتاب، فحدَّد أنَّ لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وهى حقُوقٌ مُطلقة لا يمكن التهاونُ فيها. وفى الواقع فإنَّ استخدام البروتوكولات لاتهام اليهود، فيه سقوطٌ فى العنصرية والعرقيَّة التى تصنف الناس لا على أساس أفعالهم، وإنَّما على أساس مادىٍّ لا دينى (علمانى) مسبق وحتمى، ولذا فهى لا تميِّز بين ما هو خير وما هو شر.

سنة اليهوديات

فى العام ١٩٨٦ بدأتُ فى إقامة صالونات شهرية، ألقى فيها محاضرات على الحاضرين الذين لم يكن عددهم يزيد عن عشرين أو ثلاثين مستمعاً. كانت الصالونات هذه تُعقد فى الإسكندرية، فى قصر ثقافة "الشاطبى" الذى تصدَّع بعد أعوامٍ قليلة من بنائه، بسبب الزلزال! مع أن مبناه لم يكن مرتفعاً عن الأرض.. انتقلت الصالونات الشهرية إلى قصر ثقافة سيدى جابر، ثم قصر ثقافة الحرية، ثم صارت تعقد مرتين كل شهر فى القاهرة وفى الإسكندرية. حتى توقفتُ عنها هذا العام ٢٠١٦ لأسباب يطول شرحها.

وقبل بضع سنين، بدا لى أنه من الملائم أن أخصّ كل عام بموضوعٍ أو قضيةٍ معينة، تكون محور الصالونات والفعاليات الثقافية المختلفة، ليتسع المدى أمام الفهم المتأنى للموضوع أو القضية المحورية لهذا العام أو ذاك. ومن هنا كانت سنة ٢٠١٠ عامًا للفكر السياسى، وكانت آخر ندوات الصالون الشهرى بساقية الصاوى بالقاهرة لذاك العام، عن: العقد الاجتماعى. وهو الصيغة الضابطة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، على أساسٍ واضحٍ يتلخَّص فى أن هناك عقدًا اجتماعيًا مُفترضًا، غير مكتوب. يقضى بأن واجب الحاكم هو العمل لصالح المحكومين، وفى المقابل يدينون له بالطاعة، فإذا أخلَّ الحاكم بهذا الشرط، فَقَدَ الحق فى طاعة الناس له. وهى الفكرة التى عرفناها لأول مرة

فى عبارة الخليفة أبى بكر الصديق: "أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم".. ثم تطورت النظرية من بعدُ فى أوروبا، على يد نخبة المفكرين المعروفين باسم فلاسفة العقد الاجتماعى، من أمثال جان جاك رُوسُّو ومونتسكيو وغيرهما من فلاسفة السياسة الذين فصَّلوا الكلام فى هذه النظرية التى صارت فى الزمن المعاصر، من بديهيات الحياة السياسية لدى الشعوب المتقدمة.

فلما اندلعت شرارة الثورة المصرية فى بداية سنة ٢٠١١ صار الموضوع المحورى لذاك العام هو "الفقه الثورى" واستعراض الخبرات التاريخية المرتبطة بالثورات، سعيًا للوصول إلى فهم عميق لطبيعة الحالات الثورية. ثم كان موضوع العام ٢٠١٢ هو "المعرفة" نظرًا لحالة الجهالة والتجهيل وسطوة الحمقى على المشهد المصرى العام فكانت الآفاق المعرفية المتعددة هى عناوين لقاءاتى الفكرية، ومقالاتى الصحفية، وندواتى فى الصالون الشهرى بالقاهرة والإسكندرية، وتفاعلى اليومى على الفيسبوك، وغير ذلك من وجوه الأنشطة.. ولما رأيتُ حالة الخبل العام تسود واقعنا المصرى والعربى، جعلتُ سنة ٢٠١٣ عامًا للفلسفة والمنطق. على اعتبار أن الظواهر المرضية، تُعالج بأضدادها.

وقبل دخول العام ٢٠١٤ طرحتُ على المتابعين ثلاثة موضوعات لنختار واحدًا منها ليكون موضوع العام: التصوف بمعناه الإنسانى العام، أو التراث والمخطوطات،أو اليهوديات. فاستقر الرأى على الاختيار الثالث، بعد بعض الاختلاف فى أهمية وأولوية كل موضوع من الثلاثة المذكورة. ومن هنا تمَّ خلال العام طرح موضوعات متعدِّدة من مثل: الجماعات اليهودية المبكرة (صالون القاهرة بساقية الصاوى) صورة مصر فى التوراة (صالون الإسكندرية

بقصر ثقافة الحرية) الصيغ المتعدِّدة للتوراة (صالون القاهرة).. وتتالت موضوعات أخرى فى تلك اللقاءات الشهرية التالية، فكان منها: اليهودية السامرية، اليهودية الأسينية، النصوص الثوانى والهيمنة التلمودية، مآسى اليهود عبر التاريخ.. إلخ.

* * *

وبطبيعة الحال، لم يكن المراد من الخوض فى هذا الغمار هو الحطّ من شأن اليهود وشتمهم، باعتبارهم فى أذهان معظمنا هم العدو الاستراتيجى للعرب والمسلمين. وهو الأمر الذى استغلَّه وأفاض فيه كثيرون ممن يلعبون على مشاعر الناس فى بلادنا، ويسعون إلى النيل من هذا (العدو) بالتجريح اللفظى والإعلاء الوهمى للذات. وتلك فيما أرى، طُرقُ الصبيان وأساليبُ الصغار من الناس، ناهيك عن أن الميل إلى اللعب السياسى بهذه القضية الخطيرة (اليهودية) كان غالبًا ما يُخفى المخادعة والتضليل، على النحو الذى رأيناه فى أفعال رئيس الجمهورية الإخوانى، الذى كان يصف اليهود أمام ناخبيه بأنهم أحفاد القردة والخنازير، ثم يصف تباريح الهوى وعمق المودة فى رسائله الدبلوماسية "شبه الغرامية" المرسلة للقادة فى إسرائيل.

ولا شك فى أن الكيان السياسى المجاور لنا (إسرائيل) يرتبط بشكل مباشر باليهودية، ويستعير اسمه من لقب "يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم" عليه السلام عند المسلمين، الذى انتزعه من الله (جلَّ وعلا، عند المسلمين) عندما تعارك يعقوب مع الرب، وغلبه، فصار اسمه "إسرائيل" التى تعنى حرفيًا بحسب ما ورد فى التوراة، الذى غالب الله وغلب! تقول الآية التوراتية: لا يُدعى اسمُك فيما بعد يعقوب، بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس، وقدرت.. (سفر

التكوين، فصل: يعقوب يصارع مع الله) وفى ترجمة أخرى: لأنك غالبت الله والناس، وغلبت.

.. ولم يكن طرح المسائل اليهودية والعبرانية كموضوعٍ رئيس للعام ٢٠١٤ سبيلًا للدخول فى غمار الواقع السياسى المعاصر، وفى تلك المشكلات العويصة والعلاقات العجيبة (والمريبة) بين الحكومات العربية ودولة إسرائيل، خلال الستين عامًا السابقة. وإنما كان المراد هو فهم هذه الظاهرة المركبة، شديدة التعقيد، المسماة اصطلاحًا "اليهودية" و "العبرانية" و "العقيدة الإبراهيمية الحنيفية" وما يرتبط بها من أمور عديدة عاشت مئات السنين، وأزهقت بسببها أرواح كثيرة لغير وجه الله.. أو بالأحرى: أُزهقت بسبب الاستغلال السلطوى للدين، وسعيًا لإبقاء السلطة السياسية بيدِ الحكام الذين يلعبون بالعقائد فى ميادين السياسة والصراع بين الجماعات التى تظن نتيجة جهلها أنها متنازعة (تمامًا، مثلما هو الحال أيضًا فى الحروب الصليبية).

وكان نخبة من كبار الكُتّاب والمفكرين المصريين قد تصدُّوا لهذه المهمة، وسعوا إلى "فهم" الثقافة اليهودية المعقدة، لكنهم للأسف لم يستطيعوا مقاومة فكرة (العداء التقليدى لليهود) خصوصًا فى الزمن المصرى الناصرى وما تلاه. وهو ما نراه فى كتاب الباحث المصرى المرموق "جمال حمدان" عن اليهود، وفى موسوعة المفكر اللامع "عبد الوهاب المسيرى" عن اليهود واليهودية والصهيونية. وغير ذلك من أعمال أعلامنا الذين ألَّفوا كتابات مهمة تمسَّكت بأهداب النهج العلمى، لكنها لم تستطع الاستمساك بالموضوعية والانفلات من أسر الميول السياسية المعاصرة.. ومن أراد التأكد من ذلك، فعليه بمقارنة مواقف هؤلاء الأساتذة وكتاباتهم، بموقف وكتابات العلامة "طه

حسين" الذى عاش زمنه الذهبى قبل احتدام المشكلة الإسرائيلية المعاصرة، المسماة سبهللةً "مشكلة الشرق الأوسط" وبالتالى، لم يجد طه حسين غضاضة فى أن يذهب إلى القدس، فيلقى محاضرة عامة بالجامعة العبرية.

وكذلك، لم يكن خوض غمار "اليهوديات والعبرانيات" يعنى الدخول فى معترك القضية الوهمية المسماة (التطبيع) ومقلوبها المسمى (رفض التطبيع الذى صار مبررًا لمعظم المثقفين المصريين والعرب، كى يستريحوا من بذل الجهد لفهم هذا "العدو" الذى لن "يطبِّعوا" معه، وبالتالى فلا حاجة عندهم لمعرفته أو الاستعداد اللازم لمواجهته ثقافيًا. وهذا بالطبع موقف عقيم، يجعلنا: عدواً جاهلاً. فإذا كان قدماؤنا قد قالوا "عدو عاقل خيرٌ من صديق جاهل" فما بالك بالعدو الذى اختار أن يكون جاهلًا ومهزومًا لا محالة، دومًا، وهو يتغنَّى بالانتصارات والأمجاد القديمة.

والخوض خلال ذاك العام فى تاريخ اليهودية وتطورها، وفى المسائل الكبرى المتعلقة بها مثل العلاقة بين أتباع الديانات الثلاث (التى أعتقد أنها ديانة واحدة، حسبما أوضحت فى كتابى: اللاهوت العربى) لم يتقاطع مع اعتقادى بأن الساسة العرب فى الستين عامًا الأخيرة، استغلوا التهاويل المتعلقة باليهود لأغراض تخدم بقاءهم على كراسى السلطة. لا سيما هؤلاء الحكام من ذوى الخلفية العسكرية، الذين أرادوا من شعوبهم أن تنظر إليهم باعتبارهم "حصن الأمان" حتى كان ما كان من ثورات شعوبهم عليهم. وليس من قبيل الصدفة، كما ذكرتُ مرارًا، أن تكون البلدان العربية التى (مصر، تونس، اليمن، سوريا) كانت كلها محكومة بنظمٍ ذات خلفية "ضُبَّاطية" وقادةٍ لم يقودوا بلادهم إلى النصر المؤزَّر المنتظر منهم.

ونظرًا لاتساع الموضوعات التى طُرحت، وكثرة التفاصيل التى نوقشت، فمن العسير تقديم صورة وافية عن الأطروحات التى زخر بها عام العبرانيات و اليهوديات، أو تلخيص المحاضرات التى ألقيتها خلال ذاك العام.. وربما كان من الممكن فقط، التقاط بعض النقاط الدقيقة "المدهشة" فى الموروث اليهودى الممتد فى الزمان.

مُدهشات اليهود

افتتحتُ أولى محاضرات "سنة اليهودية" بمقدماتٍ رأيتها ضروريةً ومهمّة. منها أنه لا يجب أن نثور عندما نسمع رأيًا مخالفًا لما نعتقده، وإنما الواجب أن نصبر عليه قليلًا ونتدبَّره، فلعله يكون أصوب مما هو فى أذهاننا (حسبما تقول عبارة ابن النفيس الشهيرة: وربما أوجب استقصاؤنا النظر، عدولًا عن المشهور والمتعارف..إلخ) ورجوتُ الحاضرين أن يقاوموا مؤقتًا، الميل التلقائى لقراءة الوقائع العبرانية والحكايات التوراتية، على ضوء المعتقدات الإسلامية والقصص القرآنى. نظرًا لوجود التباسٍ فادح المفارقة، وعظيم الاختلاف، بين الصيغ التوراتية (والإنجيلية من بعد) والسِّيَر القرآنية لحياة الرُّسل والأنبياء. بل هناك تفاوت كبير فى مفهوم "النبوة" بين اليهودية (والمسيحية من بعد) والإسلام. فضلًا عن عدم الانطباق فى التوصيف العام لبعض الشخصيات الدينية المهمة، هنا وهناك! مثلما هو الحال فى شخصية (داود) الذى يحكى عنه العهدُ القديم فى سِفرىْ "صموئيل" على اعتبار أنه واحدٌ من الملوك، لم يتورَّع عن الزنا بزوجة جندىٍّ فى جيشه، بينما هو فى القرآن الكريم من كبار الأنبياء. وكذلك الحال مع ابنه ووريثه (سليمان) وغيرهما

من الشخصيات المحورية كالسيدة العذراء، التى هى عند المسيحيين "مريم ابنة يواقيم" وعند المسلمين "مريم ابنة عمران وعند اليهود لا وجود لها أصلًا، و لا اعتراف بها.

وقد طُرحت فى السنوات الأخيرة عدة رؤى تاريخية، جريئة، لفضٍّ هذا التفاوت وإنهاء ذاك الالتباس. منها كتابات الباحث العراقى فاضل الربيعى: المسيح العربى/ فلسطين المتخيَّلة / القدس ليست أورشليم. وكتابات الباحث اللبنانى كمال الصليبى: خفايا التوراة / البحث عن يسوع / التوراة جاءت من جزيرة العرب.. وتنطلق هذه الكتابات من نقاطٍ افتراضيةٍ محدَّدة، مفادها أن ما ورد فى القرآن الكريم من قصصٍ عن الأنبياء، يتحدَّث فى واقع الأمر عن أشخاصٍ آخرين، وعن أنبياء يختلفون عن أولئك الذين تحدثت عنهم التوراةُ وبقيةُ أسفار العهد القديم والأناجيلُ من بعد.

وقد كانت هذه المقدمات والإشارات، ضروريةً ومهمة. نظرًا للمدهشات الكثيرة التى تفاجئنا عند النظر المتعمق فى التاريخ العبرانى والروايات التوراتية، لا سيما إن كان ذلك يقوم على أساسٍ بحثىٍّ ومنطقى، قد يأتى بغير ما استقر فى أذهان الناس.. فمن ذلك:

غالبًا ما ترتبط اليهودية فى أذهاننا بالعبرانية، وتكاد صفة "عبرى" تطابق عندنا صفة "يهودى". وذلك لأن اللغة التى كُتبت بها التوراة (أسفار موسى الخمسة: التكوين، الخروج، اللاويون، العدد، التثنية) أول مرةٍ على يد "عيزرا الكاتب" كانت هى العبرية. وهى اللغة التى حافظ عليها اليهود فى معظم الفترات من تاريخهم، وصارت اليوم هى اللغة الرئيسة فى دولة إسرائيل،

المسماة إعلامياً: الدولة العبرية.. لكن الدراسات المتخصصة تقول خلاف ذلك، حتى تلك الدراسات التى كتبها باحثون يدينون باليهودية، مثل د. إسرائيل ولفنسون (تلميذ الدكتور طه حسين) الذى يصرح فى مقدمة كتابه "تاريخ اليهود فى بلاد العرب" بما نصُّه:

اللغة العبرية من أمهات اللغات المسماة اعتباطًا "السامية" وقد كانت شائعة قبل نشوء بنى إسرائيل وظهورهم فى العالم، إذ كانت لغة أهل فلسطين هى الكنعانية. إلى أن ظهر تأثير إحدى اللهجات الكنعانية وهى الآرامية، فأخذت اللهجات الأخرى (العبرية والكنعانية الأصلية) تضمحل مع التغيرات السياسية، إلى أن أصبحت أغلب بطون (= قبائل) فلسطين وسوريا والعراق وطور سيناء، تتكلم باللهجات الآرامية، ثم أخذت هذه اللهجات فى القرون الأولى بعد الميلاد، تتدهور تدريجيًا فى أطراف الجزيرة العربية، وتنكمش وتتضاءل أمام اللغة العربية التى كانت فى ذلك الحين تمتد وتنتشر بسرعة.

* * *

وهذا الكلام السابق، المنشور فى كتاب صدر بالعربية فى مصر سنة ١٩٢٧ (مطبعة الاعتماد، القاهرة) يعنى أن الجماعات اليهودية التى نزحت على فترات متباعدة من جنوب العراق فاستقرت قديمًا فى منطقة فلسطين، صارت مع الوقت تتكلم اللغة السائدة فى مستقرهم الجديد، ولكن بلهجة خاصة سوف تسمى (العبرية) وهى واحدة من اللهجات الجارية على ألسنة الناس فى ذاك الزمان، كالآرامية. وهو ما يفسر لنا، أن "السيد المسيح" الذى كان واحدًا من اليهود وكذلك كانت أمه "مريم العذراء"، كانا يتكلمان بالآرامية التى سوف تتطور إلى صيغة أحدث هى "اللغة السريانية" المستمرة إلى اليوم،

ولا يزال الناسُ تتكلم بها فى بلدة "معلولا" السورية المعاصرة.. وهى البلدة التى يحرص اليوم المتقاتلون فى سوريا، على تدميرها ومحوها من الوجود.

والعجيب هنا، أننا لا نعرف اللغة التى كانت هذه الجماعات النازحة من بلدة "أور" فى جنوب العراق، تتكلمها. فهل كانت إحدى اللغات المندثرة، أم لهجة من لهجات اللغة السومرية العتيقة، أم هى مزيج من لغاتٍ كانت آنذاك مستعملة.. ولكن ما يهمنا هنا، هو أن الارتباط بين العبرية (باعتبارها لغةً) واليهودية (باعتبارها ديانة) ليس ارتباطًا ضروريًا، فما العبرية إلا لهجةٌ كنعانية تطوَّرت فصارت لاحقًا لغة مستقلة، مثلما تطورت بقية لهجات اللغة الكنعانية فأصبحت لغات مستقلة بذاتها وذات انتشار أوسع.

* * *

ومن مدهشات اليهود أنهم لم تكن لهم (ديانة) إلا بعد أن مرت خمسة قرون على قيام مملكة موحَّدة لهم، وهو الأمر الذى تم على يد (داود) فى حدود سنة ألف قبل الميلاد، ثم اعتلاء ابنه (سليمان) لعرش هذه المملكة، ثم انهيارها. ويجب أن نلاحظ هنا، أن مملكة داود كانت تضم غير اليهود، فقد ذكر العهدُ القديم أن "أوريا الحثّى" الذى أنجب داودُ سليمانَ من زوجته، كان جنديًا فى جيش داود، وكان يسكن فى بيت مجاور لبيت الملك. ولما رأى داود زوجة "أوريا" من فوق سطح بيته، اشتهاها، وكان ما كان من قصة اغتيال الزوج وضم الزوجة إلى حريم داود، ثم إنجابها سليمان.. إلى آخر الوقائع المذكورة فى العهد القديم المقدس عند اليهود والمسيحيين، ومن شأنها أن تصدم المسلمين الذين يعتقدون اعتقادًا آخر فى داود وسليمان (عليهما السلام).

والمهم هنا، أن "التوراة" وهى الكتاب المحورى فى اليهودية، كُتبت بعد زمن "داود" بخمسة قرون، وما كانت لتظهر لولا أن منح مرسوم الإمبراطور الفارسى "كسرى الثانى" لليهود حق العودة إلى فلسطين وبناء هيكل أورشليم، الذى تم تدميره سنة ٥٨٧ قبل الميلاد. وقد صدر هذا المرسوم الإمبراطورى الفارسى، سنة ٥٣٨ قبل الميلاد. لكن اليهود الذين كانوا قد استقروا بمدينة بابل، تباطأوا فى العودة إلى فلسطين. بل رفضوا! حتى مرت قرابة المائة عام، فأعاد "نحميا" بناء سور الهيكل سنة ٤٤٥ قبل الميلاد. يقول موسى ديب الخورى، فى مقدمة الأجزاء الثلاثة للكتاب الحاوى مخطوطات قمران، ما نصه: وفى عام ٤٤٥ قبل الميلاد، أعاد "نحميا" بناء السور ولعب دورًا أساسيًا مع "عيزرا" فى تثبيت أركان الشريعة الموسوية، كما هى معروفة اليوم فى الأسفار الخمسة (التوراة) مما يجعلهما بحق مؤسِّسى اليهودية.

.. والعجيب هنا، أننا جميعًا نعانى اليوم الأمرّين فى هذه البقعة البائسة من العالم، لأن اليهود يودون لو يهدموا المسجد الأقصى لإعادة بناء هذا (الهيكل) الذى هو شعار سياسى، وليس رمزًا دينيًا، أو أصلًا من أصول "العقيدة" اليهودية. فهم يتقاتلون، ويقتلون، ويُقتلون، من أجل مطلب سياسى يرتبط بالسلطة الدنيوية، وليس لهدف دينى مشروط بصحة الإيمان و المعتقد، حسبما يتوهم معظمُ الناس[1].

---

(١) سوف نعود لهذه المعضلة فى الفصل الأول من كتابنا القادم (شجون تراثية)

عصرُ القُضاةِ (اليهودى)

ينفرد التاريخ اليهودى (العام) بأنه نوعٌ خاصٌ من التاريخ (الخاص) المستقل عن سياق التواريخ الأخرى. بمعنى أنه يسرد بدايات التاريخ وتطوراته، من زاويةٍ خاصةٍ بالإيمان الدينى المخصوص بأتباع الديانة اليهودية، والمسيحية من بعد، وينفرد بروايات لم يؤكِّدها أو ينفيها مؤرخون آخرون أو رحَّالة أو شهود عيان. والدليل على ذلك أو بالأحرى أحد الأدلة، أن التوراة تقول إن عمر البشر على الأرض من يوم خُلق آدم إلى يوم الناس هذا، هو قرابة سبعة آلاف سنة. وهو أمرٌ يجب أن يؤمن به اليهود (والمسيحيون الذين يبدأ كتابهم المقدس بالتوراة) بقطع النظر عن معقولية هذا "التاريخ" ومخالفته للعقل والمنطق تناقضه مع الروايات التاريخية الأخرى والحفريات التى تؤكد أسوراً أخرى. منها أن حياة البشر على الأرض امتدت لمليون سنة، وأن رسوم الكهوف التى عُثر عليها فى مناطق مختلفة من العالم، يعود بعضها إلى أكثر من ثلاثين ألف سنة.. ومن سبعة آلاف سنة، كان المصرى فى وادى النيل يصوغ بدايات حضارته التى تدل عليها شواهد كثيرة، وآثار. وآدم التوراتى، لم يكن عندهم يعيش بمصر.

ولبعض الباحثين ورجال الدين، مساعٍ بائسة لربط وقائع التاريخ التوراتى بما هو ثابت تاريخيًا بطرق أخرى: الوثائق، المدونات، الآثار، الشهادات على الأحداث، الروايات التاريخية المتوافقة والمتخالفة فيما بينها. وغير ذلك من وسائل البحث فى التاريخ الإنسانى العام. لكن هذه المساعى لم تنجح يومًا فى ربط الروايات التوراتية بما هو ثابت تاريخيًا، ومع ذلك ظل (الإيمان) هو الدافع الأول لقبول ما ورد فى التوراة (أسفار موسى الخمسة) وما ورد بعدها من أسفار.

العهد القديم (التناخ) ثم أُلحقت بها الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل، فصار مجموع ذلك هو: الكتاب المقدس. العهد القديم منه مقدس عند اليهود، والعهدان القديم والجديد مقدَّسان عند المسيحيين، والمسلمون يعترفون بوجود "العهدين" لكنهم يؤكِّدون أنهما محرَّفان! لأن القرآن الكريم نعت اليهود بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو ما أفهم منه أنهم لا يطبقون الأحكام بشكل صحيح، عند إنزال النصوص على الوقائع. ويفهم منه الآخرون أنهم بدَّلوا كلام الله بكلام محرَّف.. وما كان كلام الله فى التوراة والأناجيل مُنزَّلًا بنصه، كى يمكن أصلًا تبديله.

وبحسب التأريخ اليهودى، فإن موسى النبى حين خرج باليهود من مصر قاصدًا فلسطين (أرض الميعاد) تاه بهم فى صحراء سيناء أربعين سنة. ولا أدرى لماذا لم يستدل بالنجوم أو يسترشد بالجهات الأربع الأصلية، فيتجه شمالًا أو شرقًا فيخرج من التيه. وكان الذى دخل بقومه "اليهود" إلى فلسطين، هو تابعه المسمَّى عند اليهود "يهوشع بن نون" وعند المسيحيين "يشوع" وعند المسلمين "يوشع".

وعند دخولهم فلسطين، بحسب رواية العهد القديم. أمرهم ربهم بعمل أول محرقة أو حرب إبادة (هولوكوست) لتطهير أرض الرب من الأمم والقبائل العربية كالكنعانيين، والأمم والقبائل الوافدة على هذه الأرض كالفلسطينيين (الذين وفدوا عن طريق البحر) وكذلك بقية الأمم والقبائل التى كانت تعيش بتلك المنطقة كالمؤابيين والعمونيين الذين جعلتهم التوراة سلالةَ عمليتىْ زنا بالمحارم، تمت بين لوط النبى وابنتيه.

وبعد موت يهوشع (يشوع، يوشع) تبدأ فى التاريخ اليهودى التوراتى، الحقبة المسماة: عصر القضاة.. وقد خصَّهم العهد القديم بسفرٍ خاص، جاء

فى أوله أن الرب أمر اليهود بحرب العرب الكنعانيين وإبادتهم، لكنهم بدلًا من ذلك فرضوا عليهم الجزية. ولاحظ هنا أن مفهوم "الجزية" هو مفهوم دينى يهوديُّ الأصل، وليس إسلاميًا. ولم يكتف اليهود بتغليب النفع الاقتصادى على الأمر الإلهى، وإنما مالوا إلى النساء الكنعانيات وعبدوا تماثيل الإله "بعل" الكنعانى. بعبارة توراتية: فعل بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب.. (سفر القضاة، الإصحاح الثانى، الآية الحادية عشرة).

وهكذا بدأ عصر القضاة وامتد باليهودية ثلاثة قرون، أو أربعة فى قول آخر، حتى انتهى بوفاة "شمشون" الجبار الذى تابع هواه وتزوَّج بامرأة فلسطينية فغدرت به، فانتقم من أهلها. ثم ذهب إلى "غزة" ودخل على امرأة بغى، وزنا بها (عادى يعنى) وبعد ذلك أحب فلسطينية أخرى اسمها عربى صريح "دليلة" وهى التى مكرت به وأوقعته، بعدما عرفت أن سرَّه يكمن فى شعره! يقول سفر القضاة إن الفلسطينيين جاءوا بشمشون وهو مسلوب القوى، ليلعبوا به ويهزأوا، لكنه بعون الرب أسقط أعمدة البيت ومات مع أعدائه الفلسطينيين.. ومع هذه القصة (الدراماتيكية) ينتهى عصر القضاة، ويدخل التاريخ اليهودى العام فى حقبة أخرى "ملوكية" بدأت بتتويج (شاؤل) ملكًا على اليهود فى فلسطين.

ويقال إن "سفر القضاة" هذا كتبه صموئيل النبى، ويقال إن كاتبه هو فنحاس الكاهن. وبصرف النظر عن مؤلفه الأول، فهو يحكى قصص هؤلاء القضاة (بالعبرية: شوفيطيم) الذين كان زمانهم زمن بؤسٍ يهودى، لأن أبناء الرب كانوا عُصاة.. زناة.. عبدة أوثان.. غير طائعين لأوامر ربهم القاضية بإبادة الآخرين. وقد تشرذم اليهود خلال هذه الحقبة، وكان لكل جماعة منهم قاضٍ (شوفط) يتولى شئونهم.

ولا يجب أن نفهم من كلمة "القضاة" المعنى المعاصر للكلمة، إذ أن دلالة الكلمة لا ترتبط إطلاقًا بهذا المعنى، وإنما يعنى لفظ "القضاة" شيئًا قريبًا من مشايخ القبائل، أو الكهنة الكبار. وهم فى هذا السفر (الكتاب) المقدس، لا يتورَّعون عن الأعمال المنافية للشريعة والأخلاق، كالزنا والقتل. ولم يكن حكمهم وراثيًا، ولا سلطة لهم على القوانين ولا يجوز لهم وضعها، كما لا يحق لهم فرض الضرائب على أتباعهم، فهم ليسوا "قضاة" إلا بالاشتراك اللفظى لا بالدلالة الفعلية.

ومفسرو الكتاب المقدس من المسيحيين، ينظرون إلى سفر القضاة وما احتواه من فوضويات واضطرابات ومآسٍ كثيرة، على اعتبار أنه كان مقدمةً لظهور يسوع المسيح. أما اليهود أنفسهم، فيرون فيه تاريخًا تُستفاد منه العبر والدلائل على سوء المصير عند الابتعاد عن أوامر الرب. رب اليهود.

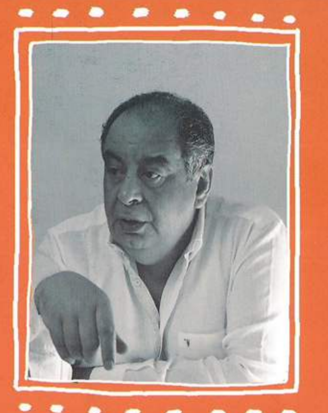
وبحسب الحسابات التأويلية الفضفاضة لسفر القضاة، فإن هذا العصر الذى امتد قرونًا، انتهى فى حدود القرن الثانى عشر قبل الميلاد. أى قبل استيلاء داود الملك على مقادير المملكتين اليهوديتين (مملكة يهوذا، و مملكة إسرائيل) وهو ما جرى بحسب تاريخهم الخاص فى حدود سنة ألف قبل الميلاد.. وبالطبع، فإن هذه الروايات جميعها تظل تاريخًا خاصًا يُروى بطريقة مخصوصة لأناسٍ مخصوصين بالإيمان، وهو إيمانٌ يدعو إلى إفناء المخالف له والمختلف معه، ومحوه.

* * *

وأخيراً، فإن كثيراً من النقاط المتعلقة بالتاريخ اليهودى والثقافة العبرانية، ورد بتفصيلاته فى المحاضرات الموجودة حالياً على "اليوتيوب" و لا أرى داعيًا

لإعـادة طرحهـا هنـا. غيـر أن نقطـةً دقيقـةً تفرَّعـت عـن موضـوعات هـذه المحاضـرات، وأثـارت صـخباً، هـى : المسـألة المقدسـية ومعضـلة الإسـراء والعروج.. وسوف تكون هذه المسالة، مع بعض الاضاءات على التراث العبرى، هى "الفصل الأول" فى كتابنا القادم : شجون تراثية.

محتويات الكتاب



فى " شجون مصرية " وهو الكتاب الشقيق لكتاب "شجون عربية"، كانت لنا سبع وقفاتٍ عبر فصولٍ سبعةٍ تخص الواقع المصرى، وترتبط به ارتباطًا وثيقًا،لكنها تلقى أيضًا بظلالها على الواقع العربى العام بحكم ارتباط مفهومىْ: المصرية، العروبة. وفى المقابل، يضمُّ الكتاب الذى بين أيدينا، ثلاثة موضوعات أساسية، تخص الواقع العربى العام وترتبط به بشكل كلى ومباشر، مع أنها فى الوقت ذاته تلقى بظلالها القوية الثقال، على الواقع "المصرى" بحكم هذا الارتباط بين المفهومين.. وهذه الموضوعات (الفصول) الثلاثة عن ثلاث مجموعات عقائية وعرقية تعيش داخل المنطقة العربية، وتتفاعل معها بأشكال مختلفة: الدواعش، الكُرد، اليهود.



ISBN 9789776436695

